مجلة
روايات أحلام

# بائع الأحلام

# بلاد عنوان

## ١ ـ الغريقة

أحياناً، عندما كانت تسمع همهمة الأصوات، أو تشعر بيد تلامس نبضاتها، كانت ترفع رأسها من إغفاءة غير مريحة، متوقعة أن ترى وجهاً لن تنساه، وجه الرجل الذي أنقذها.

لم تكن تدري كيف فعل هذا. كل ما تذكر أنها وبعد أسابيع من مقاومة الموت، كادت تستسلم له، لكنه وجدها وأجبرها على بذل جهد أخير لتعيش.

ولكنّ الوجوه التي كانت تحيط بها، والأصوات التي تطمئنها بلطف والأشخاص الذين يطلبون منها عدم القلق لأنها ستكون بخير في المستشفى، لم يكن بينها وجه ذلك الرجل الذي أمرها بأن تفتح عينيها الغائرتين، والذي أحست بين ذراعيه القويتين بعودة الحياة إليها.

ولأنها تحسنت الآن... بدأت الاسئلة تنهمر عليها. فكان أول سؤال طرحته الممرضة:

ـ ما اسمك يا عزيزتي؟

ـ دونيس... دونيس ايڤانز.

ـ انه اسم جميل وغريب.

هل هي غريبة؟... لا... بإمكانها أن تشرح للممرضة أن

اسمها من أصل بلجيكي، يعود إلى أسلافها الذين اختاروا السكن على سواحل بحر الشمال، فانتقل إليها عبر أجيال من الجدات، جداتها لأمها.

أما هي فقد ولدت في أوتاوا على ضفاف نهرها المعروف، من أبوين مهاجرين... ولكنها أصبحت يتيمة وهي لم تبلغ بعدُ عامها الثالث، فتبنتها خالتها الكبرى المثقفة العانس التي كانت تعمل في تلك الأثناء في متحف المدينة المبني على الطراز العوطي القديم. كانت تقضي أيام عطلاتها في منزل صيفي على سواحل جزيرة من جزر البهاما. وبعد فترة قصيرة من توليها الوصاية على اليتيمة، تقاعدت الآنسة إيليس، معتمدة على راتب التقاعد.

وهذا ما كان... فعلى عكس أسلافها الذين عاشوا على الساحل شمال الأطلسي ترعرعت هي قرب ساحل زمردي أزرق، بعيدة جداً عن كل التأثيرات التي تؤثر في بنات جيلها.

قاطعت الممرضة حبل أفكارها:

ـ ومن أين أنت؟

أخبرتها دونيس... مع أنها لم تكن تعي بعد أنها خلال الأسابيع الستة التي مرت بها خلال أزمتها، انجرف مركبها ألف ميل تقريباً ناقلاً إياها إلى مكان مهجور وجدها فيه ذلك الرجل... تمتمت سائلة:

ـ من هو...؟ الرجل الذي وجدني؟

ولكن الممرضة كانت قد أنهت تغيير ضمادات الجروح لساقيها وجبينها وخرجت لتعتني بالمرضى الآخرين.

في أحد أيام الأسبوع الأول من انقاذها، استيقظت فوجدت



رجلاً أسود الشعر رمادي العينين، يقف عاقد الذراعين عند أسفل سرير المستشفى... ما أن رأته حتى عرفته... إنه هو... رفعت جسدها عن الوسادة مبتسمة بدهشة وسعادة قائلة:

ـ كنت أتمنى مجيئك لأنك إن لم تفعل كنت سأبحث عنك حالما أخرج من المستشفى... فما من أحد هنا يعرف من أنقذني... قيل لي انه أحد بحارة المركب ولكنني أحس أنك إما القبطان أو أحد الضباط. إنهم يعرفون اسم مركبك وهذا يكفيني.

ثم عادت لتغرق فوق الوسادة منهكة. فسمعته يقول:

ـ المركب هو يخت وأنا لست القبطان. فماذا جعلك تظنين هذا؟

ـ لست واثقة... شيء ما فيك.

ـ أنا دهش لأنك عرفتيني آنسة ايفانز... كنت مريضة جداً عندما وجدتك. ولقد طلب مني أن لا أمكث أكثر من عشر دقائق. هل لي بالجلوس؟

ـ طبعاً... أرجوك اجلس.

بينما كان يحرك كرسياً من قرب الجدار إلى السرير تابعت تقول:

ـ لا يمكن للمرء نسيان وجه من أنقذ حياته... أظنني كنت أقرب إلى الموت ساعة وجدتني مني إلى الحياة... كيف وجدتني؟ لماذا ذهبت إلى ذلك المكان؟ إنه مكان صغير ومهجور في جزيرة بعيدة... وكان يمكن أن أعيش هناك بمفردي لو كنت أقوى جسداً. لكنني كنت ضعيفة جداً عندما وصلت.

ـ أجل... كنت تعانين من الجفاف في جسدك بشكل

خطير... ولكن تأثير المرض لن يكون دائماً. بعد بضعة أيام في المستشفى وبعد أسبوعين من النقاهة، ستستعيدين صحتك وطاقتك.

منذ تلك اللحظة أصبحت واثقة أنه رجل يرغب في الحقيقة فقط، ويضيق ذرعاً بالكذب.

قالت له:

ـ أنت تعرف اسمي، ولكنني لا أعرف اسمك.

ـ كونر... جايسون كونر.

حاولت الاستفهام عن اليخت:

ـ سيد كونر...

فقاطعها:

ـ لماذا لا تناديني جايسون، ولو سمحت لي سأدعوك باسمك الأول؟ والآن يجب أن أذكر سبب زيارتي لك... جئت اقترح عليك قضاء فترة النقاهة فوق اليخت الذي حملك إلى هذه المستشفى... قد تقولين لي إن من الجنون اقتراح هذا على شخص كانت آخر تجاربه في الإبحار، كارثة... ولكنني سأجيبك بأن اليخت كبير ستجدين فيه الراحة، والأهم انك عندما تصبحين على متنه سترتاحين من رجال الاعلام، الذين لا ترغبين في أن يلاحقوك.

ـ رجال الاعلام؟

ـ أنا آسف... لقد نسيت أنك غير معتادة على مثل هذه الاصطلاحات فكلمة الاعلام تعني الصحافة والتلفزيون، اللذين لو عرفا قصتك لزحفا إلى المستشفى دون أن يتركا لك لحظة من راحة.



ـ صحيح؟ ولماذا؟

ـ نجاتك من الموت كان حدثاً مميزاً. أنت فتاة لها شجاعة نادرة وقوة تحمل. والصحافة والتلفزيون يمكن أن يتخذا من محنتك قصة كبيرة. وبما أن ما من أحد عرف باختفائك وخالتك أو بأننا أنقذناك بواسطة مركب خاص، فقد نجوت حتى الآن من أية دعاية.

تغير تعبير وجهه وهو يرفع حاجبه مردفاً:

ـ صدقيني... عاصفة الدعاية هي أمر يتجنبه الحكيم قدر استطاعته... وأشك في أن تبقى بطولتك بعيداً عن الأسماع، ولكن على الأقل، فوق متن «كابريس» يمكن الحفاظ على سريتك إلى أن تصبحي أقوى عوداً وأصلب قدرة على تحمل الاستجواب والتصوير.

ـ اوه... كم سأكره الاستجواب... على كل لم يكن هناك من بطولة فيما فعلت فلم أتطوع لأفعل ما فعلت... بل أجبرت على ذلك.

ارتجفت عندما عاودتها ذكرى ما حدث... فمال جايسون نحوها ليمسك بيديها الضعيفتين بيده. ولم تكن يده كبيرة جداً بالنسبة لرجل له هذا الطول وهذين المنكبين العريضين، ولكن بما أن يديها هزيلتين حالياً، وأظافرها بيضاء لا زهرية كما هي عادة، فقد استطاع تغطيتهما بسهولة. سألها:

ـ هل ستقبلين دعوتي؟

ـ ولمن اليخت؟ وهل سيقبل بي أصحابه؟

ـ إنه لي. أنا مالكه وقبطانه الكابتن ماكلان الذي كان قبطاناً في

البحرية الكندية، أكيد أنا من أنك ستعجبين به ومن أنك ستكونين جد آمنة حتى أعود إلى أوروبا... فاليخت هو مكان إقامتي خلال أوقات عطلتي. ولكن لدي أمور عالقة في لندن تتطلب عنايتي، لذا سأسافر يوم الجمعة القادم.

هب عن الكرسي واقفاً ثم أردف:

ـ انتهى وقت الزيارة المسموح به، ولكنني سأعود غداً، وداعاً دونيس.

ـ وداعاً جايسون..

أخذت تتساءل بصورة جلية، عما إذا كانت ذاكرتها تخونها فيما يتعلق باليخت «كابريس» فعلى ما تذكر، هو مركب ضخم، أكبر عشر مرات من المركب الذي كانت وخالتها تعتمدان عليه لنقل تموينهما إلى كوخهما كل ستة أسابيع.

يومها قررت خالتها أن تجربه للانتقال الى جزيرة تبعد عشرين ميلاً عن جزيرتهما، فيها مخزن حيث بإمكانها شراء ما يلزمها من مؤن... كانت دونيس تشك دائماً في قدرة المركب على الإبحار لمسافات بعيدة، ولكنها الآن ليست راضية عن إثبات وجهة نظرها وخطأ وجهة نظر خالتها.

جينفير ايليس لم تكن امرأة تُحِبُّ أو تُحَبُّ. ولكنها كانت البديل الوحيد أمام دونيس فلولا بقاؤها تحت جناح خالتها لأودعت ميتماً. فرغم قسوة خالتها وظلمها الذي ازداد عبر مر السنين صبرت. كانت تعتقد دائماً أنه كان يجب أن تكون خالتها رجلاً... بدل أن تمضي كل أيامها حانقة على بنات جنسها.

ومع ذلك فقد كان حزنها على قريبتها الوحيدة كبيراً خاصة بعد



أن أدركت أنه لم يعد لديها أي مكان في الدنيا تلجأ إليه، أو على الأقل لم يكن لها مكان قبل أن يعرض جايسون كونر عليها ضيافته.

اتجهت أفكارها فوراً إلى ما حذرها منه جايسون. فوسائل الاعلام كما قال لن تتركها وشأنها... لقد أطرى شجاعتها وقوة تحملها، دون أن يعلم كم كانت خائفة ويائسة. ولكن خالتها لم تسمح لها بالبكاء أو الشكوى وهي طفلة، وربما النظام القاسي الذي ترعرت عليه ساعدها كثيراً على قمع انهيارها ما بين فترة موت خالتها وانقاذها.

كان موظفو المستشفى من جنسيات مختلفة. وكان الطبيب الفرنسي «الدكتور دوبريه» معتاداً على معاينتها والتكلم معها. وسألها تلك الليلة بلكنته الفرنسية:

ـ كيف تشعرين الليلة آنسة ايفانز؟

ـ آه... أفضل بكثير... شكراً لك.

ـ هل أتاك زائر اليوم؟

ـ أجل... السيد كونر... هل تعرفه؟

ـ أجل... أعرفه. إنه رجل سخي، يتبرع للمستشفى دائماً. إنه من قدم لنا المعدات الغالية الثمن.

ـ صحيح؟ كنت أعتقد أن الأغنياء عادة بخلاء رغم ثرائهم...

إنه دون شك رجل لطيف فقد رعاني كل الرعاية.

فنظر الطبيب محدقاً إلى الأسفل مفكراً وقال:

ـ ما من رجل خير كله يا آنسة ايفانز... فالقديس توسوس له نفسه، والعكس صحيح. أنت كنت تعيشين، كما عرفت، بمعزل عن البشر، وبما أنك ستختلطين بهم من الآن وصاعداً تذكري ما

قلته لك.

بدأ يسألها اسئلة طبية، ثم ودعها وخرج، تاركاً إياها تفكر فيما قاله فهو وإن لم يذكر اسم جايسون كونر حرفياً إلا أن في كلامه تحذيراً لها بأن لا تحسن الظن كل الظن به... ولكن لماذا عليها أن تحذر رجلاً أنقذ حياتها، ويظهر الآن الاهتمام بمستقبل صحتها؟

في اليوم التالي، وفي موعد زيارة جايسون، سمعت وقع أقدام تتجه إلى غرفتها، ولكنها كانت وقع أقدام أنثوية تنتعل حذاء عالي الكعبين. لم تعرف دونيس القادمة إلى أن أطلت فتاة جميلة شقراء الشعر محملة اليدين بأكياس من المشتريات. عندما رأتها حاملة محملة شهقت. كانت عادة تتصفح مجلات أميركية وأوروبية تتأمل صور فتيات أنيقات ملونات العيون والشفاه يرتدين الملابس الفاخرة والحلى الثمينة. ولكنها لم تكن قد شاهدت من قبل مثيلة لهن لحماً ودماً.

- مرحباً... أنا فيرونيك... طلب مني جايسون أن أشتري لك هذه الأغراض المختلفة التي أرجو أن تعجبك.

وضعت الفتاة ما بيديها فوق السرير وبدأت تفتح الأكياس:

- هذه غلالة للنوم ارتديها بدل ثياب المستشفى.

نظرت بعيني النقد إلى ما ترتديه دونيس.

لم تكن دونيس معتادة على النوم مرتدية ثياباً، لذا وجدت ثياب النوم في المستشفى مزعجة لأنها تلتف حول جسدها. ولكن هذا الثوب الذي أحضرته لها فيرونيك كان قماشه رقيقاً ناعماً كجناحي فراشة، لونه يميل إلى لون الغسق. وطارت يديها النحيفتين تتلمس القماش الناعم، واتسعت عيناها دهشة:



- اوه... ما أجمله!

- حسناً... انه ليس أفخر ما في السوق، ولكنه ليس سيئاً، لعلها تكون ملائمة لك... فكل ما قاله لي جايسون ان لك طولي، ولكنك أنحف عوداً.

قدمت لها باقي المشتريات:

- قيمة حمام... عطر للحمام... مسحوق... مستحضر للبدين والجسد... فجايسون قال انك ستحتاجين إلى أدوات تجميل كما اشتريت لك كذلك شامبو ومرطب للشعر... فهل يمكن لأحد أن يغسل شعره بماء البحر دون مرطب للشعر؟

- لم أكن استخدم له شيئاً!

- يا الله! ألم تصففيه أو تعتني به لستة أسابيع؟

جلست فيرونيك على حافة السرير، فسألتها دونيس ببطء:

- هل أنت السيدة كونر؟

- زوجة جايسون؟ لا... نحن فقط صديقان، كما يقال. ولا أظنه سيتزوج قط... أو على الأقل ليس قبل فترة طويلة.

- كان لطفاً منك شراء هذه الأغراض والإتيان بها إلى المستشفى.

- أبداً... أنا أحب التسوق... مع أنني أفضل ذلك في باريس وأوروبا. ألن تجربي ثوب النوم الجميل هذا؟

- أجل... سأفعل... أرجو أن تعذريني دقائق.

لم يكن اعتذارها بسبب الحشمة، بل رغبة في اخفاء نحافة جسدها عن الفتاة الأخرى. دخلت الحمام لتستبدل ثوب المستشفى الخاص، الذي لا شكل له، بهذه الغلالة الحريرية. عندما عادت

كانت فيرونيك تبعثر الأكياس على الأرض ومحتوياتها فوق السرير.

ـ هناك خفين في مكان ما... اوه... ها هي...

فتحت الصندوق ثم أخرجت خفين ذهبيين. لا تذكر دونيس أنها انتعلت يوماً حقاً كهذا.

ـ إن قياسك مماثل لقياسي... قياس ٣٥...

القياسات هذه كانت أمراً جديداً على دونيس، فهي رغم اتقانها الفرنسية والإلمانية والانكليزية إلا أنها لم تكن تعرف معنى القياسات من قبل.

سمعت دونيس وقع الخطوات الخفيفة التي كانت ترقبها قبل وصول الفتاة... أسرعت إلى سريرها وهي تذكر أن هذه الغلالة تكشف الكثير من خفايا جسدها. رفعت الغطاء حتى عنقها. فلم يبد يظهر من تلك الغلالة إلا الشرائط الحريرية الرفيعة الممسكة بالثوب.

ـ مساء الخير...

دخل جايسون... فردت عليه مبتسمة:

ـ مساء الخير...

لاحظ اللفائف والأكياس ملقاة على الأرض، فتوقف ليجمعها ثم قال:

ـ لن تكسبي أبداً جائزة الترتيب يا فيكي.

فردت وهي تحاول الوقوف:

ـ كنت سأجمعها بنفسي.

ثم عادت للجلوس عند حافة السرير... أما هو فتقدم ليضع كرسياً قرب السرير ويجلس عليه ثم يسأل:



ـ هل تدخنين يا دونيس؟

عندما لم ترد عليه خشية أن تفضح الفتاة الأخرى، حوّل بصره إلى فيرونيك ساخراً:

ـ لا... أعرف أنك لا تدخنين.

فاحمر وجه فيرونيك:

ـ اوه... بالله عليك يا جايسون... ألا أستطيع التدخين حتى في أثناء غيابك. لم أكن أعرف أنك قادم... على كل أما كنت تدخن أيضاً؟ لذا لا أفهم لما بت تكره التدخين.

ـ لكنني أقلعت عن التدخين. وأعتقد أن أي إنسان يملك عقلاً يقلع عنه... هيا انهضي واجلسي على كرسي فالجلوس على أسرة المستشفى أمر غير مناسب.

جلست على الكرسي وقد بدا عليها السخط، في هذا الحين تناول جايسون كرسياً آخر.

أحست دونيس بالحيرة بشأن علاقتهما، فتصرفاته تجاه الفتاة تشبه تصرف الشقيق الأكبر لا الحبيب. قالت دونيس:

ـ غمرتماني بلطفكما حينما وفرتما لي كل هذه الأشياء الجميلة... أنا مدينة لكما بالكثير.

فرد جايسون بسرعة:

ـ بالعكس... فنحن سعيدان بمساعدتك... عما قريب ستحتاجين إلى ثياب أخرى. وعندما يسمح لك الطبيب، سترافقك فيكي لتختاري بعض الثياب للخروج... فهي رغم إدمانها على البيكوتين ورغم بربريتها لها ذوق رفيع في اختيار الثياب.

ما هي إلا لحظات حتى اتسعت ابتسامة فيرونيك بسبب اطرائه

ذوقها الجميل . . . فقالت له :

ـ كم أنت متوحش يا حبيبي .

ـ صحيح . . . ولكن لدي قسمات وجه جميل؟

التفت إلى دونيس :

ـ كما تعلمين أنا مسافر إلى أوروبا غداً، ولكن ڤيكي ستؤخر سفرها إلى أن تستقري على متن اليخت .

ـ اوه . . . ولكن ألن يكون هذا مزعجاً؟

ردت ڤيرونيك :

ـ لا . . . لا أمانع . فليس في لندن في هذه الأيام مرح . كما أن جايسون سيكون مرتبطاً بعدة مواعيد . . . وأنا سعيدة ببقائي هنا لتزيدني أشعة الشمس سمرة .

قال جايسون :

ـ آه بالمناسبة . . . لقد استخرجنا هذه من مركبك .

أخرج من جيب قميصه لفافة ملفوفة بالبلاستيك . . . تعرفت إليها دونيس فوراً، إنها تحتوي المال الذي تركته خالتها لها ورسالة كتبتها بنفسها تشرح ما حصل، تحسباً لعدم نجاتها .

تابع جايسون :

ـ لقد فتحت اللفافة وقرأت رسالتك . وما قرأتها إلا لأنك كنت حينذاك عاجزة عن الإجابة عن أي سؤال، فاعتقدت أنه قد أجد فيها ما يلقي الضوء على ما حصل .

ـ إذن لقد عرفت أن خالتي ماتت .

ـ أجل . . . ولقد اتصلت بمأمور الشرطة في المجموعة التي تنتمي اليها جزيرتكما لأخبره بما حدث . ولأطمئن على سلامة



ممتلكاتك حتى تتمكني من العودة إلى بلدك أو حتى تقرري شيئاً آخر كالبدء في حياة جديدة في مكان آخر .

ـ أنا . . . لا أريد العودة . . . ولكن أين استطيع الذهاب؟

ـ أنت شابة، وقريباً سترتد إليك صحتك . وعندها سيصبح العالم كله مسكناً لك . انسي كل شيء عن هذا وركزي على الشفاء . بعد ثلاثة أسابيع أو شهر سأعود وعندها نبحث أمر مستقبلك .

ـ لماذا أنت لطيف معي؟

كان السؤال يدور في رأسها منذ ليلة الأمس . . .

ـ لأنني معجب بشجاعتك . ولأنك بحاجة للمساعدة، ولأنني قادر على مساعدتك . ألا يكفي هذا؟ يجب أن تذهب الآن . وداعاً دونيس .

ووقف . . . فردت عليه :

ـ وداعاً، وشكراً يا ڤيكي على شراء هذه الأغراض لي .

سمعت الفتاة تقول بعد خروجهما :

ـ المسكينة، إنها ضعيفة واهنة . وهل تعتقد أن خالتها العجوز كانت مجنونة؟

لم تستطع سماع رد جايسون، لكنها اعتقدت أنه أجابها بصوت منخفض زاجراً ڤيرونيك لتبقي صوتها منخفضاً .

بعد خمسة أيام كانت تتسلق سلم اليخت الخشبي المعلّق، ثم خطت إلى السطح حيث استقبلها رجل غليظ الجسم قصير، قدم نفسه على أنه قبطان «كابريس» . كانت تقف خلفه امرأة متوسطة العمر، ترتدي زياً رسمياً للبحرية اسمها السيدة مارشان المضيفة . قالت لها المرأة بكل لطف :

ـ سأريك غرفتك آنسة... أيمكن هذا؟ إن يومك الأول بعد المستشفى متعب... ستسرين بالراحة قبل الغداء.

بالنسبة لدونيس، التي عاشت عمرها في كوخ سقفه ألواح خشب وقش، كانت الإقامة في المستشفى فاخرة. ولكن الغرفة التي اقتيدت إليها كانت أكبر من غرفة المستشفى بثلاثة أضعاف، في وسطها سجادة بيضاء وسرير مفروش ذي ملاءات من الحرير الصيني الأزرق، يتناسب مع مفرشي الكرسيين المصنوعين من الخيزران. أجلستها السيدة على الكرسي المديد قائلة بعد أن لفتها ببطانية صوفية:

ـ نامي نصف ساعة الآن وستحسين بعدها بالانتعاش. لقد ترك السيد كونر تعليمات صارمة بأن لا نتركك تتعبين.

كانت تعلم، من فحوصات المستشفى، انها لم تشفَ بعد من فقر الدم، مع أن مستوى كرياتها البيضاء والحمراء أصبحت متساوية؛ ومع ذلك فقد حذرها الدكتور دوبريه من المبالغة في تناول الطعام، وبما أن الطعام في المستشفى كان مدروساً ليفي متطلبات جسدها، فإنها كانت دائماً تحس بالجوع.

تناولت الغداء مع ڤيرونيك فقط، وبعدها استلقت تحت ظل مظلة بينما استلقت الفتاة الأخرى تحت أشعة الشمس، كانت ترتدي بيكني أما جسدها فدهنته بزبدة جوز الهند وأبقت شعرها اللماع مغطى... سألتها دونيس وهي تراقب الزبد يتسع خلف اليخت أثناء انطلاقه فوق مياه البحر الأزرق:

ـ أتعرفين جايسون منذ مدة طويلة؟

فتأوهت ڤيرونيك:



ـ منذ حوالي الأربعة أشهر... إنه ساحر، ألا تظنين هذا؟

ـ لست واثقة مما تقصدين بقولك ساحر.

فضحكت الفتاة الأكبر سناً:

ـ الحديث معك كالحديث مع قادم من الفضاء. على المرء تفسير العديد من الأمور لك. الساحر هو الرجل الذي يخلب لبك... يشعل نارك... يجعلك ترغبين فيه... ألم تشعري بهذه الأحاسيس يوماً تجاه رجل؟

هزت دونيس رأسها:

ـ لم ألتق إلا القلة من الرجال.

ـ كم عمرك؟

ـ تسعة عشر عاماً تقريباً.

ـ يا إلهي! لست أدري عدد الرجال الذين عرفتهم وقد بلغت التاسعة عشرة.

ـ وكم عمرك؟

ـ ثلاثة وعشرون.

ـ وجايسون؟

ـ أتعلمين... لم أسأله قط... ولكنه يصغر من أعرفهم من الأثرياء نحو الثلاثين سنة. فمعظم أصحاب الملايين طاعنين في السن... ولكن جايسون... في الغرام... أعني... هل أصبيك بالصدمة؟ هل ربتك خالتك العجوز العانس على قوانين العذارى حتى يوم الزفاف؟

ـ ما كانت توافق خالتي على الزواج. كانت تقول إن هناك أهم في الحياة من الجلوس في البيت بانتظار رجل.

فتمتمت ڤيرونيك:

ـ اسمعي هذا... إذا أردت الزواج، عليك البحث عن رجل ثري يدفع للناس ليخدموه... ولكن للأسف هذا النوع لا يريد زوجة، أو صديقة دائمة... إنه يفضل فتاة جديدة في كل حين... كما هو الحال مع جايسون ولكن حتى بقرّر التخلي عني سأعيش أوقاتاً عظيمة... إنه يشتري لي كل ما أريد، ويأخذني إلى أماكن خلابة... إن شعاري أن أعيش يومي.

استلقت على ظهرها معلنة أنها ستنام أما دونيس فبقيت يقظة تفكر في ڤيرونيك، حتى استنتجت إن رأيها في الحياة يشبه رأي خالتها، لكن بصورة عكسية. فكلتاهما تستثني الحب، الذي تعرف مما قرأته، إنه قمة ما يختبره البشر.

نهضت من مكانها بعد أن تأكدت من أن الفتاة الأخرى قد غفت ثم سارت فوق سطح المركب... كانت الأيام التي تمر تزيد ساقيها قوة، ولكن سيمر وقت طويل، كما تشعر، قبل أن تتمكن من الركض والسباحة كما كانت تفعل من قبل.

توقفت لتتكيء إلى قضبان السياج ثم نظرت إلى المياه التي اعتادتها، دون أن تشعر بالخوف.

سمعت صوتاً خلفها فاستدارت لتشاهد شاباً في مثل سنها تقريباً، يمر من وراءها... كان يرتدي ثياب الخدمة الرسمية التي كان يرتديها السيد كليف، الذي قدم الغداء لهما. عندما نظرت إليه توقف قليلاً، وانحنى بأدب قائلاً:

ـ مساء الخير يا آنسة... أثمة ما أخدمك به؟

فترددت قليلاً، لا تريد أن تزعج أحداً. ولكن عطشها كان



شديداً فقالت بعد تفكير:

ـ أتظن أن بإمكاني الحصول على زجاجة من الماء المثلج؟

ـ طبعاً يا آنسة. سأحضرها لك حالاً... هل أنت ذاهبة إلى سطح اليخت الأمامي؟ ستجدين هناك بعض الكراسي المريحة.

ـ صحيح؟ شكراً لك.

تابعت السير إلى حيث أشار الشاب... لم يمض وقت طويل حتى عاد يحمل صينية فيها زجاجة مياه معدنية موضوعة في وعاء مليء بالثلج المكسّر.

وضع الساقي الصينية على الطاولة قربها، وفتح القنينة ليصب لها المياه الغازية في كوب طويل. ثم أعاد الغطاء إلى مكانه... فقالت:

ـ شكراً لك. لم أذق في حياتي مثل هذه المياه العذبة. أشعر بأنني أعيش مرفهة.

ـ صحيح... أتصور هذا... هل آتيك بكتاب؟ أو مجلة أزياء مثلاً؟

ـ لطف منك، ولكنني سأكون سعيدة بالجلوس هنا... هل أنت على متن اليخت منذ زمن؟

ـ ليس منذ زمن بعيد... هل تعذرينني الآن يا آنسة؟

حيّرها تصرف الساقي الشاب قليلاً، فلكنته تشبه لكنة جايسون أكثر من لكنة السيد كليف. ولأن فكرتها عن الحياة في أوروبا مبنية على نوعية تصرفات خالتها الكبرى، فقد اعتقدته أحد ضباط اليخت لا أحد السقاة الشبان.

ذلك المساء، وقت العشاء، تقدم إليها الضباط الأربعة الذين

يخدمون على متن المركب. . . شعرت بالخجل منهم لكنهم سرعان ما جعلوها تستريح لهم إذ لم يذكر أحد الظروف التي أتت بها إلى اليخت بل كان الحديث على المائدة يدور بمعظمه عن الكتب. بدا أن الجميع كان يقرأ الكثير. وبما أن دونيس كانت قد قرأت كتباً عديدة عن الثقافات الأوروبية الكلاسيكية، وعن حقول أخرى، لم تجد أية صعوبة في المشاركة بالحديث. . . ولكن فيكي أحست بأنها خارج الجديث، فهي باعترافها لم تقرأ إلا المجلات النسائية.

آوت دونيس باكراً إلى فراشها. . . لكنها وجدت صعوبة في أن تنام نوماً متصلاً. وفي الصباح اختارت آخر المؤلفات المنشورة على الرفوف في غرفتها. وهذا ما فتح عينيها على أن الحياة في موطن أجدادها، قد تغيرت كثيراً منذ غادرتها وخالتها منذ ستة عشر عاماً. وقد تغيرت كثيراً، كثيراً منذ عهد خالتها، أي قبل الحرب العالمية الأولى.

أثناء تناولها الفطور الذي أحضرته السيدة مارشال إلى فراشها راحت تفكر في هذه الحياة المترفة، بعد أشهر الحرمان الماضية تلك. خلال فترة الصباح اكتشفت أن اليخت يحتوي على غرفة تجميل تحمل فيها امرأتان تعادلان السيدة مارشال عمراً. كانت السيدة مارشال قد أخبرتها أن جايسون يحب أن تبقى النساء اللاتي يقصدن يخته أنيقات، مسرحات الشعر. . . بينما كانت فيكي تتلقى التدليك من السيدة باد قامت الآنسة هوغر بالعناية بأظافر دونيس.

بعد يومين، توقف المركب في ميناء جزيرة لا تبعد سوى ساعة عن مطار دولي حيث ستتمكن فيرونيك من السفر إلى لندن



للانضمام إلى جايسون. لم تحس دونيس بالأسف لسفرها، فقد اعتادت، حتى قبل حادثتها، على العيش في عزلة وصمت، وقد بدأت ثرثرة الفتاة تزعجها.

مع مرور الأيام أخذت تنام بشكل أفضل، أما آلامها فراحت تتلاشى وصورتها في المرآة تبدلت من فتاة مهجورة فوق جزيرة إلى فتاة صحيحة معافاة.

كانت ترى الخادم الشاب يومياً، وسمعت الآخرين ينادونه باسمه، دايفد. . . لكن لم تتح لها فرصة الحديث معه إلا بعد أن رسا اليخت على شاطىء جزيرة، حيث نزل الطاقم ليسبح، وليقيم حفلة شواء على الشاطىء.

مع أن دونيس استحمت في البركة الصغيرة فوق اليخت، إلا أنها لم تسبح كما كانت معتادة على السباحة منذ آخر يوم قبل رحلتها المشؤومة مع خالتها الكبرى. . . عندما كان الشواء يهيأ بإشراف السيد كليف، تسللت مبتعدة لتجرب مدى عافيتها عن طريق اكتشاف قدرتها على السباحة دون تعب.

البيكني الأبيض والأخضر الذي ارتدته تحت فستانها الخفيف، كان فوق اليخت ولكن دونيس كانت تفضل السباحة عارية كما اعتادت في الجزيرة التي لم تعرف لها موطناً سواها.

بعيداً عن أنظار المحتفلين، خلعت فستانها، ثم غطست حتى وصلت المياه إلى خصرها، بعد ذلك قفزت إلى الأمام لتختفي تحت السطح ثم تصعد على مسافة بعيدة، منهمراً شعرها الطويل كالشلال على كتفيها.

لم تكن تحس أن هناك من يراقبها، فأخذت تضرب الماء

بساعديها وتسبح إلى أن أحست بألم من التعب. ثم أحست بالرضى عن نفسها، فبعد أيام قليلات ستستعيد عافيتها تماماً.

عادت إلى الشاطىء. فلما خرجت من الماء أصيبت بدوار خفيف جعلها تنهار فوق الرمال، وتستلقي محدقة إلى السماء، تعبة، مرهقة، ولكن سعيدة بنتيجة اختبار قوتها.

ـ هل أنت بخير آنسة ايفانز؟

الصوت الهادىء القلق جعلها تنهض بسرعة. التفتت إلى صاحبه فإذا هو دايفد الساقي مرتدياً ثياب السباحة بدل بذلته المعتادة، يقف على بضعة أمتار منها... فابتسمت له:

ـ اوه... مرحباً. أنا بخير... مقطوعة النفس قليلاً، ولكن هذا أمر متوقع.

ـ أنت سبّاحة رائعة... كنت تقطعين الماء كسمكة القرش.

ـ لقد مارست السباحة يومياً في كل أيام حياتي. أتحب الماء؟

ـ ومن لا يحبه... هنا؟

ـ لقد امتلأت بالرمل، سأعود إلى الماء ثانية لأنظف جسدي. هل ترافقني؟

لاحظت أنه تردد قبل أن يقف... ثم ركضا معاً، وقفزا إلى الأمام... اتبعها هو بسباحة سريعة لحوالي الأربعين متراً، بينما تبعته دونيس بكسل وقالت له عندما وصلت إليه:

ـ أعرف أن اسمك دايفد، واسمي دونيس، كما لا بد تعرف. لذا لست مضطراً لمناداتي بالآنسة ايفانز الآن... أليس كذلك؟

ـ أظن أن هذا من واجبي.

ـ ولماذا؟ لقد فهمت من الكتب التي قرأتها أن الأيام قد تغيرت



في أوروبا عما كانت عليه عندما كانت تعيش فيها خالتي. كما قرأت أن الجميع هذه الأيام سواسية على الأقل خلال ساعات فراغهم.

ـ أعتقد هذا... ولكن إلى حد معين. وأنا لي وضع خاص.

ـ صحيح؟ ولماذا؟

هذه المرة لم يكن هناك مجال للشك في تردده... ولكنه قال في النهاية:

ـ أنا لست ساقياً في الواقع... إنه عمل مؤقت بالنسبة لي. ولكن يشرفني، بطريقة ما، أن أقوم بعملي بشكل جيد، وكأنه عمل دائم.

ـ إذا لم تكن ساقياً، فمن أنت؟

ـ لا شيء... حتى الآن. لقد تركت المدرسة منذ أشهر قليلة وبعد أن انتهي من مهمتي هنا، سأبدأ دراسة القانون... فمن وصايا والدي أن يجرب كل أولاده في ما بين سن الطفولة وسن الرشد عملاً لا يتلاءم مع مستواهم. فلقد بدأ والدي حياته من لا شيء، وهو لا يحب من يرث ماله دون تعب. أو من يأخذ الحياة الجيدة كأمر واقع.

أثناء الحديث الدائر بينهما كانا يسبحان عائدين إلى الشاطىء... حالما وصلا إلى اليابسة وقفت دونيس فعصرت شعرها ثم جففته:

ـ ليتك تخبرني عما حدث يوم أنقذتموني... لقد سألت فيرونيك لكنها قالت إنها لم تكن في اليخت يومها.

ـ هذا صحيح... فالآنسة توماس لم تكن معنا. كان على اليخت ستة ضيوف... ولكنني أظن أن السيد كونر كان قد ضاق

ذرعاً من رفقتهم، وبعد الغداء خرج إلى الشاطىء وحيداً...
وعندما عاد يحملك بين ذراعيه ظن الجميع أنه فات الأوان على إنقاذك... لكن ها أنا أنظر إليك الآن! أنت مذهلة... إذا كان يحق لي هذا القول... آنسة.

فضحكت واحمر لونها، فقد ازدادت وزناً بالفعل وامتلأت أردافها وعادت كما كانت، ولكن قبلاً لم يقل لها أي شاب إنها مذهلة، ومع أنها تعلم أنه يبالغ، فقد أسعدها سماع هذا.

أردف:

ـ ما أدهشني أنّ السيد كونر استطاع منع تسرب الخبر إلى وسائل الاعلام. لكنه دون شك ضغط على ضيوفه لإخفاء الخبر، فهو شخصية قاسية كما يقولون وهو مصاب بعقدة من الاعلام. لهذا لا تعلم أمي وشقيقته أي شيء عن حياته الخاصة.

ـ وماذا تعني؟

ـ لا شيء في الواقع... أظن أن معظم القصص عنه هي إشاعات. ومبالغ فيها.

ـ وما هي تلك القصص؟

ـ يدعونه باسم جيسي كونر، وهذا يعني أنه زير نساء... فهو والآنسة توماس... فلنغير الموضوع، لم يكن من حقي إثارته، فأنا أعمل عنده، وأحبه.

ـ وأنا مدينة له بحياتي.

وصلا أثناء سيرهما إلى حيث يحتفل الجميع... أحست دونيس بأن معظم الرجال كانوا ينظرون إليها بطريقة جعلتها تتمنى ارتداء أي شيء غير ثوب السباحة هذا.



كانت معتادة على البقاء عارية تقريباً، ولكن لم تكن معتادة على أن يرمقها الرجال بنظراتهم، هي لا تنكر أنها لم تمانع عندما نظر إليها دايفد بتلك الطريقة، إلا أن الأمر مختلف بوجود حفنة من الرجال ينظرون إلى جسدها، ولكنهم سرعان ما أشاحوا بنظرهم عنها، بعد أن اخمر وجهها من جرّاء نظراتهم الفاحصة. ارتدت فستانها بسرعة، ثم انضمت إلى النسوة الثلاث.

بعد بضعة أيام سمعت السيدة مارشال والسيدة باد، تتحدثان عنها، وما سمعته قبل أن تدرك أنها المعنية بالكلام... جعلها تضطرب. كانت السيدة مارشال تقول:

ـ اوه... صحيح... إنها جميلة حقاً... ما كان أحد ليظن هذا عندما جاء بها السيد كونر إلى المركب، ميتة أكثر منها حية... إذا أردت رأيي... فهذه الفتاة ستضرب فيرونيك توماس على رأسها. لذا لا أظن أننا سنرى تلك الفتاة ثانية، فلا بد أنها هربت... وستحل محلها فتاة أخرى عما قريب.

تطوعت السيدة باد بإبداء وجهات نظرها:

ـ أوافقك الرأي... لا يمكن مقارنة الآنسة ايفانز الشابة بالفتاة توماس. فهذه بريئة كالطفلة... وذلك واضح من الاحمرار الذي اكتسح وجهها عندما كادت عيون الرجال تخرج من محاجرها وهم يرونها في ثوب السباحة، أما تلك الفتاة فبعيدة عن البراءة كل البعد.

ـ حسناً... كل ما أرجوه أن يلاحظ السيد كونر كل هذه البراءة قبل أن يقرر أن تكون الفتاة التالية على لائحته...

وهنا، أدركت دونيس أن عليها أن لا تستمع إلى المزيد...

واضطربت من القليل الذي سمعته، فصعدت إلى غرفتها، وأخذت تنظر إلى نفسها في المرآة...

هل هي حقاً جميلة؟

هل يعقل أن ينقلب الرجل الذي تظنه المحسن إليها إلى فاسق عديم الضمير يتوقع منها مكافأته على كرمه بمشاركته الفراش؟

بعد يومين، وفي وقت كان من المتوقع وصول طائرة جايسون إلى مطار قريب من الجزيرة حيث يرسو اليخت على شاطئها، كان يجرى لدونيس فحص طبي شامل في البلدة نفسها بناء على طلبه.

عندما عادت إلى اليخت، كان على متنه، ولكنه لم يكن على سطحه. لذا لم تشاهده إلا قبل وقت وجيز من العشاء، وذلك في وقت كان المركب فيه قد انطلق من جديد فوق مياه البحر.

نظرت دونيس إلى نفسها في المرآة بينما كانت السيدة مارشال تصفف لها شعرها... كانت تعلم أنها تغيرت كثيراً منذ رآها جايسون آخر مرة، ولكن هل هي بنظره جميلة وفق المقاييس التي يحدّدها في المرأة.

تمنت أن لا يراها جميلة لئلا ينقلب عرفانها بالجميل إلى مرارة، كما لا بد أن يحصل فيما لو حاول أن يورطها في ذلك النوع من العلاقة التي بينه وبين فيرونيك.

ولكنها كانت ترى في عيني السيدة مارشال نظرة شخص يراقب حملاً ذاهباً إلى الذبح...

●●●



## ٢ ـ امرأة أخرى

كان جايسون كونر يقف عند الحاجز، يداه مستقرتان على قضبان الحاجز ينظر إلى المياه اللامعة كالفضة تحت ضوء القمر.

عند هبوط الليل، كانت المظلة الكبيرة التي تغطي منطقة المائدة لتحميها من حرارة شمس النهار تُرفع لتفسح المجال لنسيم الهواء ولرؤية السماء الصافية.

ابتلعت دونيس ريقها بصعوبة قبل أن تقول بهدوء:

ـ مساء الخير سيد كونر.

التفت إليها لكنه بدا مشغول البال، ثم لم يلبث أن استعاد اهتمامه الكامل بها فراحت عيناه تحدجانها من رأسها إلى أخمص قدميها ثم تعودان صعوداً إلى وجهها، مما جعلها تحس فجأة بأن ثوبها الحريري قد تبخر وأصبحت أمامه عارية إلا من ملابسها الدّاخلية.

جعلتها نظراته هذه تحس بما شعرت به الجواري في سوق النخاسة منذ قرون. أحست، بحزن، إنها تحت رحمة رجل ظالم فاسق، سيستغل جسدها كما يريد، دون أن يعبأ برأيها أو بما إذا كانت معجبة به أو كارهة له، طالما يجد فيها ما يريد.

ولكن، قبل أن تظهر امتعاضها لنظرته تلك... قال لها:

ـ مساء الخير... كدت لا أعرفك. تسرني استعادتك العافية. هل أثبت الفحص الطبي اليوم أنك بصحة جيدة كما يظهر عليك؟

ـ أجل... وشكراً لك... لم يعد بي شيء الآن... أشكر لك فترة النقاهة الرائعة التي تسنت لي.

ـ جيد... نستطيع إذن بحث مسألة مستقبلك. هل تذهب إلى العشاء؟

تحرك نحو الطاولة ليسحب لها كرسياً تجلس عليه. وقبل أن يجلس على كرسيه، لمس جرساً استدعى بواسطته رئيس الخدم. قال وهما بالانتظار:

ـ هل فكرت في هذه المسألة؟

ـ أريد العودة إلى بلادي، ولكن ربما لن تكون عودتي أمراً عملياً.

ـ ولماذا لا؟

ـ في مذكرات خالتي التي قرأتها دون شك، ذكرت أنها تركت لي بعض المال، ولكنني لا أعرف مقداره ولا أعرف إن كان سيفي حاجاتي حتى أجد عملاً.

ـ فيم تفكرين أن تعملي؟

ـ أي شيء.

حضر السيد مارشال ليقدم لهما أولى الوجبات... وسألها:

ـ هل ستتناولين بعض العصير هذا المساء يا آنسة؟



ـ لا شكراً... المياه الغازية كالمعتاد.

فسألها جايسون:

ـ ألا تحبين العصير؟

ـ أحبه، ولكن الماء الغازي لديكم رائع جداً.

ـ يجب أن لا تقبلي بأي شيء وتستقري عليه.

فأجابته بجفاء:

ـ أحياناً على المرء أن يقبل ما هو متوفر له... من الطبيعي أن تحب أفخر المآكل والمشارب، ولكن في بعض الأحيان قد نجد السمك المجفف وكوباً من ماء المطر ألذّ من الأطعمة الفاخرة.

فعبس يرمقها بنظرات ظنتها نظرات غاضبة... لكن سرعان ما أضيئت عيناه ببريق مرح.

ـ هذا صحيح... ولكن ظروفك الحالية لا تضطرك للقبول بأي شيء... وإذا ثبت أن أموال خالتك غير كافية، فسأساعدك مسرورا.

ـ أنت لطيف جداً... ليتك تعرف مدى امتناني. لكن يجب أن أبدأ بإعالة نفسي.

ـ لماذا؟

ـ لأنني... لأن على كل إنسان الاتكال على ذاته.

ـ هذا صحيح... ولكن ذلك يكون حين يبلغ المرء سن الرشد. أمامك وقت طويل للوصول إلى تلك المرحلة... إذا عشت وحيدة في محيط غريب فستصبحين عرضة للخطر...! إن لك لكنة فرنسية. أتجيدينها؟

ـ قليلاً... فقد تعلمتها من الكتب والاسطوانات التي كانت بحوزة خالتي قبل أن أولد... لذلك فلغتي الفرنسية قديمة الطراز.

ـ كما هي انكليزيتك تماماً... فالأسطوانات الآن تدعى شرائط التسجيل، ولكنني واثق أنك ستلتقطين بسرعة مفردات لغة هذه الأيام مع أنني أجد لفظك الغريب للمفردات لذيذاً!

قال آخر كلماته بالفرنسية. فأجابته باللغة نفسها:

ـ ألن يوفر لي اتقاني لثلاث لغات وظيفة ما؟

ـ يجب أن تدعم هذه المهارات بمهارات خاصة، كالطباعة على الآلة الكاتبة، والاختزال. الأفضل أن تبعدي فكرة الاستقلال هذه عن تفكيرك. فالانتقال من بيئة إلى بيئة ليس بالأمر السهل. أنت كالغطاس إذا طفا إلى سطح الماء بسرعة أصيب بالتشنج... فعلى الغطاس أن يطفو ببطء لئلا يتعرض للأذى. وهذا ما يتوجب عليك فعله.

ـ وكيف لي أن أفعل هذا؟

ـ بالذهاب إلى مدرسة أعرفها. مدرسة للشابات اللاتي يردن معرفة شؤون الطبخ وآداب الحديث والتصرف وتدبير أمور منزل المستقبل. وهذه أمور يجب أن تعرفها كل النساء... بغض النظر عن نوع عملهن في الحياة.

ـ قرأت عن مثل هذه المدارس، ولكنها لبنات الأثرياء.

قرع الجرس ليستدعي الساقي...

ـ أنا ثري جداً يا دونيس، ومع أنني لست طاعناً في السن لأكون والدك. ولكنني سأكون سعيداً بأن أحل محله... من



أبوك؟

فترددت قليلاً:

ـ لست أدري، إنني لا أعرف اسمه حتى فايفانز هو اسم عائلة أمي، التي لم أرَ لها صورة لأن خالتي أتلفتها بعد موتها. كنت يومذاك في الثامنة من عمري... لذا لا أذكرها.

ـ وأهل أمك؟ هل كنت على اتصال بهم؟

ـ لا... فجدتي، شقيقة خالتي الكبرى، ماتت قبل أن أولد. وجدي، لأمي، الأكبر سناً، لا يمكن أن يكون حتى الآن على قيد الحياة. ولي أقارب آخرون، ولكن لولا وجود خالتي لنشأت في ميتم، لذا لا أريد أن أبحث عنهم.

بعد تقديم الوجبة التالية، وتغيير الصحون، وخروج الساقي، سألته:

ـ تقول انك ثري جداً، فكيف جمعت ثروتك؟

ـ يعود الفضل في الأساس لجدي الذي سافر إلى كندا باسم غريب يصعب لفظه، أبدله باسم كوتر. يومذاك كان معدماً لكنه كان ذكياً فطناً. تزوج والدي من فتاة غنية من عائلة عريقة، وعرف كيف يستغل المال بذكاء على أشياء دائمة الجمال والقيمة... وأظن أنني ورثت ذكاء ودهاء جدي، وذوق أمي وثراءها.

ـ هل لديك أخوة وأخوات؟

ـ أخت واحدة تكبرني سناً. ولكنني أفضل فصل حياتي الخاصة عن العلاقات العائلية. وأظن أن دايفد ذكرها لك. محاولاً أن يسليك بحديثه، كما يبدو.

ـ إذا كنت تقصد أننا التقينا وتحدثنا معاً... فصحيح.

ـ بل أنني أقصد أكثر من هذا، وخاصة إذا كنت ودايفد قد سعيتما إلى خلوة في المخزن للتحدث.

تحول عدم ارتياحها لسخريته إلى غضب:

ـ لم أكن أعلم أنني مراقبة، وأن كل شيء أفعله يقدم به تقرير لك. إن السيد كليف أساء تفسير الأمور... كنت اسأل دايفد عن رأيه في فرص إيجاد عمل لي في أوروبا.

ـ إن استخدامك اسمه الأول يدل على درجة من الود، لا أراها عادة بين خادم وضيوفي.

ـ إنه ليس كبقية الخدم... لقد حاول تجنب الكلام معي... ولكنني أنا من... ضغط عليه. ولا أرى ضيراً في هذا.

ـ ربما... ولكن أي فتاة لها جمالك، عليها أن تتوقع إن انعزلت مع شاب في مكان ما، أن يقبلها. فهل خطرت لك مثل هذه الفكرة؟

ـ أبداً.

ـ ولكنني واثق أنها خطرت له، وربما خطر له أكثر من ذلك... أول درس يجب أن تتعلميه أن معظم الرجال قد يرغبون في مطارحتك الغرام، والعديد منهم قد يحاول هذا... فإذا أردت تجنب الاحراج، فيجب أن تتعلمي التصرف الرزين.

فنظرت إليه وقالت بصراحة:

ـ وهل يجب أن أكون حذرة معك أيضاً؟ إذا كان هذا، فالأفضل أن تنزلني في أقرب مرفأ.



عاد المرح إلى عينيه وهو يقول:

ـ لا... فالواقع إنني من الرجال القلائل الذي يمكن أن تثقي بأنهم لا يفكرون فيك بتلك الطريقة. صحيح أن لي عدة رذائل، ولكن ليس من بينها اغواء فتاة قاصر مثلك.

ـ حسناً... هذا يريحني.

ضحك جايسون، فأدركت أن مثل هذا الارتياح الذي أظهرته لم يكن دبلوماسياً.

بعد العشاء، أخذها إلى صالون اليخت الرئيسي، وهو مكان لم يسبق أن دخلته. كان أثاثه بسيطاً مريحاً، على أرضه ثلاث سجادات عجمية فاخرة، عرفت دونيس قيمتها لأنه كان عند خالتها سجادتان منها.

بينما كانت تتأمل اللوحات، عمت الصالون أنغام رائعة لا تقارن بما كانت تسمعه من أصوات موسيقية من اسطوانات خالتها التي كانت تديرها على جهاز قديم الصنع.

جلست على مقعد مريح، ثم أغمضت عينيها وبقيت كذلك دقائق حتى قالت بذهول:

ـ أشعرني الصوت بأنني في حفلة موسيقية حقيقية!

ـ وهذا أفضل برأيي، فأنا أكره الجلوس جامداً دون حراك اسمع الموسيقى الممزوجة مع السعال والهمس.

دهشت عندما رأته يفتح خزانة ويخرج منها علبة فاخرة انتقى منها سيكاراً طويلاً... أشعله، ثم لما لاحظ نظرتها المتعجبة قال:

ـ اسمح لنفسي بسيكار في اليوم، إنه من أفخر أنواع

السجائر ولا أظنك ستجدين رائحته مزعجة.

جلس في الطرف الآخر للغرفة، ثم عقد ساقيه فوق بعضهما، ونظر إلى إحدى لوحاته... تناهت إليها رائحة وجدتها لذيذة من سيكاره. ومع أنه قال إنه يكره الجلوس دون حراك، فهو لم يتحرك خلال استماعه إلى الموسيقى سوى لينفض رماد سيجاره. ويرفعه إلى فمه.

عند انتهاء الموسيقى، وقف جايسون فاختار شريطاً آخر من مجموعته فكانت الموسيقى التالية مختلفة عن الأولى... موسيقى خفيفة لحنها جميل تعزفها آلة لم تعرف ما هي... فسألته:

ـ أحببت هذه... ما هي؟

ـ اعتقدت أنها ستعجبك. إنها فالس برازيلي معزوفة على الغيتار تدعى «فالس كريولو».

توالت المقطوعات الموسيقية على الغيتار ولكنها لم تعجب سوى بالأولى... مضى ما يقرب الساعة وهو يدخن السيكار... ويستمع معها إلى الموسيقى. بعدها أرسلها إلى النوم:

ـ في الغد تتناول الفطور معاً عند السابعة، تصبحين على خير دونيس.

تقدم نحو الباب ليفتحه لها. فتمنت له ليلة سعيدة وهي تحس بأنه صرفها لأنه سئم رفقتها... عندما كانت تخلع فستانها وتعلقه في الخزانة، أخذت تقول لنفسها ان من السخف الإحساس بالخذلان لأنه لم يتمن لها ليلة سعيدة كما يجب، في



وقت كانت تخاف فيه أن يغازلها.

هل يمكن أن تصدق تأكيداته لها بأنها آمنة معه؟

بطريقة ما أحست أنه رجل يفي بوعده... ولكن ماذا تعرف عنه حقاً؟

استعدت للفطور في الصباح التالي قبل السابعة بعشرة دقائق. وعندما بلغت مؤخرة اليخت، وجدت دايفد، يضع اللمسات الأخيرة على المائدة. فابتسمت له:

ـ صباح الخير... لعله لم تصادفك متاعب بسبب حديثنا.

ـ لقد حصلت على محاضرة فلسان السيد كليف الذع من عضته.

ـ ولكنك لست خادماً... كما أنني لست بالضبط...

صمتت حينما رأت التغيير الذي اكتسح ملامحه وهو ينظر خلفها حيث تناهت إليها وقع أقدام.

ـ صباح الخير دونيس... صباح الخير دايفد.

ذهب جايسون إلى كرسيه، ولكنه لم يجلس قبل جلوس دونيس، ثم قال لدايفد:

ـ عصير برتقال لي أرجوك... كيف تحبين بدء فطورك دونيس؟

ـ بعصير البرتقال كذلك... شكراً.

بعد ذهاب دايفد، ثبت لدونيس أن سمع جايسون حاد وأنه سمع آخر كلامها... فقال لها:

ـ كنت على وشك أن تقولي لدايفد انك لست ضيفة هنا. كما أتصور؟

ـ لا أشعر بهذا... أنت اضطررت إلى استضافتي على متن مركبك دون أن توجه لي الدعوة.

ـ أساساً، هذا صحيح. ولكن ليس في المرة الثانية... أنت هنا ضيفتي!

ـ ولكنني لا أشعر بهذا... ودايفد يلائم عالمك أكثر مني.

ـ هل أعطتك خالتك هذا الانطباع... هل جعلتك تشعرين بأنك غير مقبولة في المجتمع؟ إذا كان كذلك فهي مخطئة جداً فعالمنا الحالي لا يعتبر الأولاد مسؤولين عن ذنب آبائهم... وما يسمى بالعائلة ذات الأب أو الأم الواحد، هو أمر عادي في مجتمعاتنا اليوم... أحياناً بسبب انهيار الزواج وأحياناً بسبب موت أحد الوالدين.

ـ لا أظن أن خالتي هي التي جعلتني أشعر بهذا... هي على كل كانت تكره الرجال، وتظن أننا، نحن النساء، نكون أفضل حالاً من دونهم ولكن على حد قولها، لا بد منهم للحفاظ على الجنس البشري.

ـ حقاً؟ وهل كانت خطتها أن تكوني أنت مؤسسة المجتمع النسائي. حيث تعاملين المواليد الذكور كما كان الصينيون يتعاملون مع المواليد الإناث في قديم الزمان؟

ـ أوه... يا إلهي! لا. لا شيء كهذا. كانت تعرف أن العالم تغير، وتعرف أنني ذكية، وكانت تتمنى أن ترجعني إلى موطننا لأحقق ما لم تستطع هي تحقيقه، كانت تتوقع أن تعيش حتى التسعين، وكان سيكون لها ذلك لولا ما حدث.

ـ أتشعرين بقدرة على الحديث عما حدث الآن؟ رسالتها،



التي قرأتها، توضح كيف كانت تتصور نهايتها... ولكنها لم تذكر كيف وصلتما إلى ذلك المأزق.

فردت بصوت منخفض:

ـ لقد ضحّت بحياتها في سبيلي... فالسمك المطبوخ والماء القليل الذي كان بحوزتها لم يكن يكفي إلا شخصاً واحداً. لقد كتبت رسائلها وبينما كنت نائمة من الإرهاق، رمت نفسها في البحر. وعندما وجدت نفسي وحدي كدت أغرق نفسي كذلك.

ـ وهذا ما كان سيضيع تضحيتها هباء. كنت محقة بالتشبث بالحياة فهي قد عاشت حياة مديدة أما أنت ففي بدايتها.

أحست من اتساع الموج الذي يخلفه اليخت وراءه، والاهتزاز القوي أنه يسير بسرعة مضاعفة عما كان يسير عليه اليخت قبل مجيئه فسألت:

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ سنعود إلى حيث كنت تسكنين في الجزيرة لتستعيد أغراضك. فلقد تركت الكثير هناك على ما أعتقد؟

ـ صحيح... لأننا لم نكن ندري أننا سنتأخر. على الأقل هذا ما اعتقدته هي. لأنني كنت قلقة بشأن المركب. ولكن خالتي أصرت على استخدامه... وبعد أربع ساعات من الاقلاع تغير الطقس وفاجأتنا عاصفة دفعتنا إلى الجزيرة البعيدة التي وجدتني عليها..

ـ ماذا كان معكما من مؤن ساعة الاقلاع؟

ـ بعض الخبز والبقطين، ونصف دزينة من زجاجات المياه

وبعض السمك المطبوخ... كان ما معنا يفوق حاجتنا لولا هبوب العاصفة.

- إذن، نفذ منكم الماء والطعام منذ البداية.

فهزت رأسها ولم تعد راغبة في متابعة الذكرى، فقالت:

- إن اقتراحك العودة لنقل أغراضي لطف منك، لكنني أعتقد أنها لا تستحق العناء، فلم يكن لدينا ممتلكات كثيرة، أو شيء له قيمة، لا نستطيع الاستغناء عنه.

في الواقع كان هناك شيء ستكون سعيدة باستعادته، ولكنها تعلمت شيئاً مهماً من محنتها، وهو أن لا شيء مهما كان ثميناً، يستحق الكثير من الحزن... فالحياة نفسها هي الكنز الحقيقي.

بعد يومين عندما وصل اليخت إلى ساحل الجزيرة التي كانت تسكن فيها، بدا المكان كما تركته. لم يزره أحد، إلا إذا كان زورق التموين قد وصل في النهاية، فوجد أن المرأتين ليستا هناك، ولم يزعج صاحب الزورق نفسه بالتساؤل عن سبب غيابهما.

الشيء الذي شعرت بالحزن على خسارته وجدته محفوظاً في علبة قديمة. كانت حرصاً منها عليه قد لفته بقماش حريري أحمر. أما هذا الشيء فهو عبارة عن قلادة ذهبية بيضاوية الشكل مربوطة إلى شريط من المخمل الأسود. وعلى وجه القلادة حُفِر حرف «د» من فيروز أزرق وعليه بضع الماسات صغيرة تحيطه، سقط منها ثلاثة.

بعد أن جال جايسون بنظره في الكوخ الذي كان منزلها، نظر إليها فإذا في يدها شيئاً ما تنظر إليه بحب.



- ماذا لديك هنا؟

فعرضتها عليه:

- كانت لجدة تحمل اسمي.

- جميلة جداً... فيها أحجار كريمة جيدة. لا يتوقع أحد أن يجد قطعاً أثرية في مثل هذا المكان.

- أحضرتها خالتي من بلجيكا، البلد الذي كانت تعيش فيه وهي ورثتها عن أهلها. ربما الخير لي في أن أكتب للتاجر مذكرة بأن يبيع هذه القطع...

- لا... لا... يجب أن تحتفظي بها... إنها قطع رائعة... وكذلك هذه السجادات العتيقة، إنها مهجورة بشكل سيء، ولكن يمكن تنظيفها وإصلاحها.

- ولكن كيف احتفظ بها. ولا مكان لدي أرسلها إليه.

- ما من مشكلة، سأحتفظ لك بها في مكان أمين إلى أن تطلبيها

بينما كان بحارته ينقلون ممتلكاتها من الشاطىء إلى اليخت... سبحا معاً في البحر. ومع أنها كانت تعرف أنها تتغلب في السباحة على معظم الرجال في اليخت، إلا أنها أدركت إنها لا يمكن أن تتغلب على جايسون الذي كشف عن جسد ضخم العضلات مديد الساقين.

بينما كانت تفك سحاب قستانها استعداداً للسباحة، تذكرت كيف نظر إليها البحارة يوم رأوها في البيكني للمرة الأولى وكذلك تذكرت كيف نظر إليها جايسون في الليلة التي عاد فيها إلى اليخت... فهل سيسبب منظرها في البيكني اشتعال تلك

النظرة الحارقة من جديد؟

ولكن قبل أن ينزلق الفستان إلى الرمال، كان هو في طريقه إلى المياه الهادئة الباردة الخضراء اللون. وجدته كما توقعت سباحاً ماهراً، وسألها:

ـ هل تجيدين تسلق أشجار النخيل كما يفعل أطفال هذه الجزر؟

ـ أجل... لقد علمني التسلق طفل كان رفيقاً لي أثناء الطفولة.

ـ أرني كيف تتسلقين.

ـ حسناً.

سبحا نحو الشاطىء، وقالت بعد أن وصلا:

ـ انتظر لحظة... سأذهب إلى الكوخ لأحضر حلقة التسلق.

في الكوخ وجدت أحد البحارة يضع لها الكتب في صندوق كرتوني كان وحده أما بقية البحارة فكانوا ينقلون أغراضاً أخرى إلى الشاطىء ومنه إلى اليخت. دخلت لتأتي بالحلقة المصنوعة من جذوع الشجر فتوقف عن عمله قليلاً:

ـ هل تمتعت بالسباحة يا حبي؟

فاجأتها طريقة كلامه... ولكنها أجابت:

ـ أجل شكراً.

ـ أعتقد أنك عندما كنت تعيشين هنا كنت تستحمين كما خلقك ربك.

ـ وماذا تعني؟



ـ أعني عارية.

راحت عيناه تجولان في جسدها. جعل هذا الرجل كلمة «عارية» تبدو بذيئة. وكان بإمكانها اختطاف الحلقة والخروج دون رد. لكن الرجل كان يحمل كتاباً مفتوحاً، كان دون شك يقرأ ما فيه... بينما كانت تحضر الحلقة سمعت صوت تمزق الكتاب... وبما أنها تحافظ على كل شيء، مهما كان بسيطاً فقد أجفلها الصوت حتى قالت له:

ـ اوه... كن حذراً سيتمزق الغلاف لو كررت هذا.

ـ وهل هو كتابك المفضل.

مدّه إليها ليريها إنه كتاب عن النحت مفتوح على صفحة فيها صورة تمثال إغريقي قديم لرياضي عار. كانت قد نظرت إليها عدة مرات دون حرج. لكنها الآن وهذا البحار يراقبها ضاحكاً شعرت بالخجل. رمى الكتاب جانباً، وتحرك حتى حال بينها وبين الباب.

ـ ما رأيك بقبلة قبل أن تخرجي؟

ـ اوه... لا... أرجوك!

ـ ولماذا لا؟ ستدعينه يفعل لو أراد. فما الخطأ في أن أفعل أنا؟ لا تقولي إنني لست ثرياً.

أضاف إلى كلامه كلمة، لم تفهم معناها، لكنها علمت أنها مفردة بذيئة عن جنسها.

سارعت دونيس نحو الباب، تفتحه بيديها المبللتين بالعرق. لكنها ما إن تعرضت لقبلة سريعة منه حتى سمعت صوتاً متوحشاً يقول:

ـ دع الآنسة وشأنها!

تركها البحار فوراً، فلاحظت أن نظرته تغيرت إلى سخط كئيب قبل أن تغادر الكوخ بأمر من جايسون، فأسرعت إلى الماء لتغسل شعورها بيديه القذرتين وفمه.

كانت في الماء عندما انضم جايسون إليها دون أن يعلق على ما حدث... ولكنه قال:

ـ والآن ماذا جرى لدرس تسلق الأشجار؟

عرضت له كيفية تسلق الأشجار، رغم انزعاجها الشديد، فتعلم منها بسرعة كيفية استخدام الحلقة. كانت تجيب على اسئلته باهتمام جعلها تنسى ما حصل لها.

عندما عادا إلى شاطىء البحر بعد تجولهما في الغابة، كان رئيس السفاة قد نزل إلى الشاطىء فحضر طاولة في ظل مظلة شمس خضراء كبيرة. ولم يبق ليخدمهما، بل شرح لهما محتويات الأكياس، وعاد إلى اليخت مع آخر شحنة من أغراضها. قال جايسون:

ـ سنرسو هنا حتى الخامسة، وأعدك ألا يزعجك ما قد تتوقعين.

ـ لا... لا أبداً... هل... هل تلومني على ما حدث؟

ـ ولمَ ألومك؟

ـ حذرتني من دايفد.

ـ ذلك أمر مختلف... هل تحدثت مع هذا الشاب سابقاً؟

ـ أبداً!

ـ القبطان لا يختار عادة بحارة سيئي الخلق، ولكن يبدو أنه



اخطأ هذه المرة... سأطرد البحار في أقرب مرفأ.

ـ وهذا ما سيجعله يكرهك.

ـ يكرهني؟

ـ إنه يحسدك على ما تملك... و... كل ما حدث كان بسبب ذلك.

ـ ليس هو وحده من يحسدني... فالعالم مليء بالحسد. إنه سكير يبذر راتبه على المقامرة.

ـ هذا سيء بما فيه الكفاية.

ـ هل قبلك أحد من قبل؟

فهزت رأسها نفياً.

كانا على الشاطىء براقبان الزورق يتجه بنعومة إلى اليخت... لكنها قبل أن تعرف ما ينوي فعله وضع يده تحت ذقنها، ورفع رأسها ثم طبع قبلة على جبينها وارتد بعد ذلك إلى الوراء يسأل:

ـ هل هذه أفضل؟ لا تقلقي لن أكررها... على الأقل ليس قبل أن تصبحي أنضج. والآن فلتتناول الغداء.

بعد أقل من أسبوع وجدت دونيس نفسها تجلس في الدرجة الأولى في طائرة تطير إلى باريس... كانت تجلس قرب النافذة، تحدق إلى المحيط الذي يبعد آلاف الأقدام عنها، دهشة من ترامي مساحته.

بعد أن بدأت دهشتها تزول، أشاحت بصرها عن المنظر الخارجي وراحت تراقب المضيفات الجميلات وهن يروحن ويجئن بين المقاعد... ثم حطت بصرها أخيراً على جايسون

الجالس قربها. الحامل كتاباً عن الاقتصاد في آسيا.

منذ اليوم الذي قضياه في الجزيرة حيث كانت تسكن، أمضت الكثير من الوقت تفكر فيما يعنيه بقوله انه لن يقبلها ثانية إلى أن تصبح أنضج... قبلة البحار البغيضة تلك لم تفكر فيها كثيراً، ولكنها كل ليلة كانت تحس بأن يدي جايسون ما زالتا على كتفيها، وبأن لمسة شفتيه تحرق بشرتها وبأن صوته يهمس «هل هذا أفضل؟».

كان أكثر الركاب على الطائرة يمضون الوقت في الأكل والشرب، إلا أن جايسون اكتفى ببعض السلطة والماء دون أن يفرض عليها القيام بما يقوم به. كان بين الفينة والأخرى يسند رأسه قليلاً ليغفو ويستيقظ بسرعة مماثلة. دون تثاؤب أو تمطط، فيفتح كتابه من جديد وهو في كامل وعيه.

كان الجميع يربطون احزمتهم عندما قال جايسون لها:

ـ حتى نتجنب اهتمام رجال الاعلام، رتبت أمر لقائك بالمدام دوريه. إنها أرملة حسنة وأم أحد موظفيّ الفرنسيين. ستأخذك إلى منزلها لقضاء الليل، حتى آتي في الصباح فأنقلك منه... الأفضل لنا أن لا نظهر أمام أحد بعد مغادرة الطائرة، اننا نعرف بعضنا.

ظهر اليوم التالي رن جرس باب شقة المدام دوريه... فقالت السيدة لضيفتها:

ـ أظنه السيد كونر.

تمنت دونيس أن تكون المدام محقة، فرغم لطف هذه السيدة إلا أنها أحست بالوحشة منذ افترقت عنه في المطار.



كلاهما لم يكن يحمل إلا حقيبة يدوية فقط أما كل ما اشترته فيرونيك فبقي على متن اليخت، لذلك قدمت لها المدام ذلك الصباح تنورة وكنزة من الصوف.

لاحظت أن تصرفات جايسون كانت حادة فبعد تحية المرأتين، وشكر المدام على ضيافتها قال:

ـ هل أنت جاهزة دونيس؟ أين معطفك؟

فسارعت المدام للقول:

ـ اوه... المعطف! لحظة مسيو!

اختفت لحظات ثم عادت تحمل سترة لها رباطات ثبتتها إلى خصر دونيس. ثم أعطتها حقيبة كتف جلدية. وبعد لحظات كان جايسون يحمل حقيبتها الصغيرة، ويسير معها إلى حيث ترك سيارته.

رؤية باريس في صبيحة يوم ربيعي أبقاها صامتة مذهولة إلى أن خرجت بهما السيارة خارج المدينة، فسألته:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ إلى المدرسة التي ذكرتها لك.

ـ اوه!.. أبهذه السرعة؟

أحست بالانزعاج لأنها ستكون قريباً بين غرباء، كانت تحس بالأمان مع جايسون. ولكنه طمأنها:

ـ ستستمتعين فيها.

ـ وكم فتاة في المدرسة؟

ـ بين الثلاثين والأربعين.

ـ كلهن فرنسيات؟

ـ لا بل خليط من جنسيات مختلفة... فرنسيات، أميركيات، انكليزيات، عربيات... لن تكوني الوحيدة التي عليها أن تتكيف مع محيط جديد.

ـ صحيح... ولكنهن يعرفن أشياء لا أعرفها أنا. مثل اسم هذا الفرو مثلاً.

لمست كمي معطفها... فابتسم مبتعداً:

ـ إنه فرو «المينك»...

سألته:

ـ جايسون، ماذا كنت تعني عندما قلت ليلة أمس اننا يجب أن لا نُشاهد معاً؟

ـ لو أن أحداً من الصحافيين شاهدنا، لافترض أنك تحت حمايتي من وجهة نظر أخرى... أتاريد لك سمعة عفيفة غير مدنسة بأقوال الناس. إذا سألك أحدهم سؤالاً عني أشيري إلي كوصي لك... فمن الطبيعي أن تعرف المدام مون بلان مديرة المدرسة، كيف جئت إلى مدرستها...

اجتازا ثلاثين كيلومتراً حتى وصلا إلى المكان المنشود الذي رمقته دونيس بنظرة أولى، فهذا المكان سيصبح منزلها. شاهدته من بعيد، قصراً صغيراً تُخفيه عن الأنظار غابة من الأشجار الخضراء الملتفة حوله.

أدخلتهما إلى القصر خادمة، أجلستهما في صالون رسمي فيه مقاعد خشبية مغطاة بالحرير، وسقف مزين بالرسوم، وستارة ضخمة مربوطة عند الوسط بشرائط. بعد بضع دقائق من الانتظار، انضمت إليهما امرأة صغيرة الجسم رمادية الشعر



ترتدي بلوزة صوفية وتنورة، تماثل ثياب دونيس، وتضع شالاً حريراً مثبتاً بواسطة حلية، تظهر بوضوح أناقة مميزة.

كانت هذه المرأة المدام مون بلان، التي رحبت بدونيس قائلة لها بانكليزية طلقة:

ـ لا داعي إلى هذا التوتر الذي يظهر عليك. ستشاركك الغرفة فتاة انكليزية تدعى مارغريت مايلز، ستساعدك على الاستقرار، وتشرح لك ما هو غريب عنك.

ثم التفتت إلى جايسون:

ـ أتحب أن تشاهد المنزل والأرض المحيطة به، سيد كونر؟

ـ في وقت آخر. لو سمحت... فعلي العودة سريعاً إلى باريس.

ـ لكن يجب أن تتناول بعض الشاي قبل ذهابك؟

ـ شكراً لك مدام، ولكنني في طريقي إلى لندن. طائرتي ستغادر بعد ثلاث ساعات. ما توقفت في باريس إلا لأضع الفتاة التي عهد إلي رعايتها بين يديك.

ـ نحن نؤخرك، سأترككما للوداع.

ـ لسنا بحاجة للخلوة يا مدام...

قال ذلك ثم التفت إلى دونيس:

ـ وداعاً... السيدة مون بلان ستؤمن لك كل ما تحتاجينه مهما يكن.

مد يده لها مودعاً... فسألته:

ـ ومتى سأراك من جديد؟

ـ لست أدري... ليس قبل وقت طويل... سيمتلأ وقتك

بأمور كثيرة، فلا تقلقي.

أحست لوقت قصير باصابعها مشدودة في يده القوية وذلك قبل أن يلتفت إلى المديرة مودعاً.

بعد أسبوع من وصولها إلى شاتو شارمين أحست دونيس بأنها كانت في هذا القصر منذ أشهر عديدة... رفيقتها في الغرفة، مارغريت مايلز، أعجبتها كثيراً. كانت ضخمة الجسم، شقراء الشعر، فتاة عملية، سرعان ما أسرت لدونيس أن والديها مفلسين وأن مصاريفها تدفعها جدتها على أمل الحصول لها على «زواج جيد».

كانت مارغريت دائمة القلب ومرحة، فشعرت دونيس معها بأنه لن يطول الوقت حتى تجد هذه الفتاة شاباً مناسباً يعجب بسحر شخصيتها أكثر من جمال جسدها.

كما أحبت رفيقتها، أحبت المعلمين، وهم عبارة عن فريق متمدن من الرجال والنساء، يعلمون مواضيع مختلفة بما فيها، الطبخ وشغل الإبرة وتاريخ الفن والشؤون الحالية للعالم وإدارة المنزل، ومبادىء التصميم الداخلي.

كانت الإدارة أحياناً تنظم رحلات لزيارة القصور التاريخية، أو المتاحف أو معارض الفنون. وتشمل الجولات المحاضرات الثقافية، الحفلات الموسيقية، عروض فن التجميل وتعليم التنس، دروس في اليوغا، والعديد من النشاطات.

في أوقات فراغهن، رغم عدم السماح لهن بالخروج من حرم المدرسة دون إذن خاص، كن يتمتعن بحرية التجول في الأحراج، أو الاسترخاء في صالونات صغيرة، للتعرّف إلى



فتيات من جنسيات وأعراق مختلفة، وكن يكتشفن دائماً أنهن رغم هذا الاختلاف يتفقن في كثير من الأمور المشتركة.

بعد انقضاء شهر عليها هناك. استدعيت دونيس إلى غرفة جلوس المدام مون بلان الخاصة، لتبادل حديث تقليدي عن تقدمها في الدراسة.

خلال هذا الحديث، تحدثت دونيس عمّا كان يخالج نفسها منذ مدة. فقد قالت بارتباك:

- مدام... أود الكتابة... لوصيّ... ولكنني لا أعرف عنوانه... هل لك أن تعطيني إياه؟

- يمكنني أن أعطيك عنوان شركته هنا في باريس، وما من شك أنهم سيوصلون رسالتك له... أما عنوانه الخاص فلا أعرفه. لدي تعليمات منهم تطلب مني، إذا حدث لك أي مكروه الاتصال بشقيقته في بروكسل، وهي كانت فيما مضى تلميذتنا.

- اوه...؟ وهل تعرفينها؟

- لا... كانت قبل أن استلم الإدارة. تسلمت الإدارة منذ ثماني سنوات. كانت السيدة غاردنر هنا في أواخر السبعينات لكني قد استقبل ابنتها قبل تقاعدي.

فيما بعد، في غرفتها، قالت لها مارغريت:

- تبدين محبطة، ما الأمر؟ لا يعقل أن تزعجك المدام. فأنت هنا «نزيلة» مثالية.

كان يحلو لمارغريت تشبيه المدرسة بالسجن، فابتسمت دونيس:

ـ لا... لقد كانت لطيفة جداً. ولكن... لقد دفعتني للتفكير في المستقبل وفيما عليّ فعله في مستقبل حياتي.

ولكن هذا لم يكن سبب رجوعها من المقابلة متزعجة، أو محبطة كما قالت مارغريت، ولكنها قالت هذا لتغطية السبب الحقيقي، وهو أنها لا تود إرسال رسالة خاصة لجايسون عبر مكتبه، حيث قد تفتحها سكرتيرته.

بما أن مارغريت قد علمت أن دونيس يتيمة، وأن شؤونها منذ وفاة خالتها الكبرى في يد وصي، فقد اعتقدت أن جايسون رجل عجوز... قالت لها:

ـ قانونياً، أنت فوق سن الرشد الآن. وهذا يعني أنك قادرة على فعل ما تريدين في حياتك ولكن ربما له حق الاشراف على أحوالك إلى أن تصبحي أنضج شخصية.

كان استنتاج مارغريت خاطئاً، ولكن كيف لها وهي تملك كل مظاهر الفتاة الثرية، أن تفسر، أنها مثلها... مفلسة؟

كرهت دونيس الكذب... ولكنها كانت تجد نفسها في موقف تضطر فيه إلى لوي الحقيقة قليلاً.

كان البريد يصل إلى القصر ظهر كل يوم، وكانت تأمل في كل يوم أن تتلقى من جايسون رسالة أو بطاقة بريدية فحسب ولكن... مرت خمسة أسابيع ولم يصلها أي شيء منه.

في أحد أيام أسبوعها السادس، كانت في مطبخ التعليم، تجرب تحضير فطيرة تفاح، عندما دخلت مساعدة السيدة مون بلان المطبخ قائلة لاستاذ الطهو:

ـ هل تملك أن تعذر الآنسة ايفانز مسيو؟ فالسيدة المديرة



ترغب في رؤيتها حالاً.

سارعت دونيس إلى تنظيف يديها، وخلع معطف العمل والقبعة البيضاء من فوق رأسها. أثناء مسيرها إلى مكتب المديرة تذكرت أن آخر مرة استدعيت فيه فتاة هكذا إلى المديرة كان لسبب إصابة والدها بنوبة قلبية... ولكن جايسون شاب صغير لن يصاب بنوبة كهذه... هل يمكن أن يكون قد تعرّض إلى حادث مثلاً؟

ابتسامة المدام لها كانت كافية لتطمئنها، فاجتاحتها موجة ارتياح... وقالت لها المديرة:

ـ مفاجأة خاصة لك دونيس... السيد كونر قادم ليرافقك إلى الغداء بعد ربع ساعة... لأن هاتفنا كان معطلاً لم يستطع مكتبه الاتصال بنا سوى الآن، لا داعي إلى تغيير ملابسك فهي تلائم الغداء في مطعم «البغانس» وهو المكان الذي اعتقد أنه سيقصده، اسرعي فقط ورتبي شعرك. وقد أتحدث قليلاً معه قبل أن تخرجا، فانتظري في غرفتك حتى أطلبك.

هرعت دونيس إلى غرفتها تحس بالحرارة من الإثارة. ورغم تأكيد السيدة لها بأنها يجب ألا تغير ملابسها فقد خلعتها وارتدت فستاناً اعتقدت أنه أكثر أناقة، لا تظهر فيه كتلميذة. ثم طفقت تذرع غرفتها متسائلة عما إذا كان جايسون سيلحظ التغيير فيها.

أخيراً جاءت إحدى الخادمات تطلبها إلى الصالون الأخضر، فركضت إلى الأسفل... ولكنها قطعت الردهة بهدوء، تتنفس بعمق عدة مرات حتى تدخل الصالون هادئة.

ولكن عندما دخلت ووقع نظرها على جايسون، لم تستطع منع نفسها عن الابتسام بترحاب ظاهر فقال لها:

ـ مرحباً... كيف حالك؟

ـ أنا بخير... وأنت؟

ـ بخير...

ولم يضف كما توقعت «لقد تغيرت» أو «تعجبني تصفيفة شعرك». إنها تعلم أنه شديد الملاحظة، لكنه على ما يبدو لن يشير بكلمة إلى مظهرها المختلف.

تقدمت المدام منها، ووضعت يدها على ساعدها قائلة:

ـ تعالي... دعيني أقدمك.

عندها فقط، وللمرة الأولى، لاحظت أن في الصالون شخصاً آخر هي امرأة ترتدي فستاناً حريرياً أخضر ووشاحاً حريرياً يخفي معظم شعرها.

ـ سيدة دوفال... اسمحي لي أن أقدم لك دونيس ايفانز.

قادت تلميذتها نحو المقعد الذي تجلس عليه امرأة راحت تراقبها بعينين تلمعان كالحلي. وتابعت:

ـ وكما ستلاحظين دونيس، لولا بقاؤك وقتاً طويلاً في عزلة لعرفت أن السيدة دوفال إحدى أشهر ممثلاتنا.

قالت المرأة بكل أناقة:

ـ كيف حالك آنسة ايفانز.

لم تكن صغيرة... هي على الأرجح في الأربعين، أي أنها أكبر من جايسون بسنوات، كانت تجبر شفتيها على الابتسام، بينما كانت تنحني للسيدة كما تنص عليه آداب اللقاء. علمت دونيس، بثقة آلمتها، أن هذه المرأة الرائعة وجايسون حبيبان.



## ٣ ـ عالمها الجديد

السيارة التي أقلتهم كانت سيارة كبيرة فخمة قادها سائق يرتدي زياً رسمياً... كانت دونيس ستشعر بسعادة أكبر لو جلست في المقعد الأمامي إلا أن السيدة دوفال أصرت على أن تجلس في الخلف بينهما.

أثناء المسير إلى مطعم «اليغانس» طرحت عليها اسئلة عن حياتها وعن زميلاتها في المدرسة. بدا اهتمامها حقيقياً، ولو أنهما كانتا وحدهما لأخذت دونيس الأمر كما هو، ولكن مع وجود جايسون على الجانب الآخر منها، جاءت ردودها مقتضبة مقيدة... في وقت كانت تعلم أنه يفضل البقاء وحده مع حبيبته الجديدة الجميلة.

كانت دونيس حتى وصلوا إلى مطعم الفندق الفخم قد تلقت تعليمات بمناداة السيدة باسمها الأول «كليو». في غرفة الزينة لم تلمس كليو زينتها. بل أخرجت زجاجة عطر ورشت رذاذها على جسدها... رذاذاً له رائحة عبير سماوي.

ـ ألم يعلموك تجديد عطرك كل حين؟

ـ لا... لم أُنبّه إلى ذلك.

ـ إن بعض النساء، حتى في فرنسا، لا يتعطرن كما

يجب... رشة خفيفة خلف الأذن مرتين في اليوم... وما نفع هذا؟ على المرأة أن تكون رائحتها منعشة طوال الوقت... لكن عليها ألا تستخدم العطر نفسه. مثلاً اليوم أضع «شانيل» وفي الأمس كنت أضع عطر «جوي»... لماذا لا تضعين أي نوع من العطور؟

ـ ليس لدي عطر.

نفضت الممثلة تنورتها بعد أن رشت تحتها قليلاً من العطر، وقالت:

ـ شبابي كان مختلفاً عن شبابك. فقد ولدت في احياء باريس القذرة. مرّ علي وقت عصيب حتى لفتّ انتباه لبون دوقال منتج الأفلام الشهير. فجعلني نجمة، ولكنني دفعت الثمن... آه كم دفعت... ! كان منتجاً ومخرجاً لامعاً... ولكنه كان حيواناً كرجل مات منذ خمس سنوات. ومنذ ذلك الوقت، أحسست بالسعادة للمرة الأولى في حياتي، لذا لن أدع رجلاً يمتلكني بعد الآن.

ـ هل لديك أولاد؟

ـ لا... وشكراً لله! عملي وعشاقي يكفون لابقائي مشغولة... هل تحبين أن تنجبي الأولاد؟

ـ ربما... من المستحسن أن ينشأ المرء في عائلة سعيدة.

ـ ولكن يا حبيبتي، سرعان ما تكره هذه العائلة بعضها... وأنا شخصياً أجد الأولاد مملين.

ما إن أوشك الغداء على الانتهاء حتى أدركت دونيس سبب إعجاب جايسون بالممثلة. إنها متحدثة لبقة، صريحة، مسلية



ومعتدة بنفسها ومع ذلك فليست متصنعة إطلاقاً. ودت لو تكون مثلها، ولكن أمامها طريق طويل جداً لتصل إلى ربع ما هي كلير عليه.

بعد الغداء اقترحت كلير التنزه على ضفاف النهر. سارت وجايسون يداً بيد، متشابكي الأيادي...

قال جايسون لدونيس:

ـ لقد رتبت لك أن تقضي عطلة الفصح مع شقيقتي في بروكسل... لشقيقتي ابنتان ذكيتان، هما أصغر منك سناً بضع سنوات... ستنسجمين معهما... وزيارتك هذه ستخولك التعرف إلى الحياة الريفية.

وتذكرت ما قال عن أنه يفضل فصل حياته الخاصة عن علاقاته العائلية. فهو على ما يبدو، يحسبها جزءاً من حياة عائلته.

بعد وصولها قرب مدخل القصر أردف قائلاً:

ـ سننزلك عند البوابة... هل تمانعين في السير حتى القصر؟

ـ لا... بالطبع لا... كان لطفاً منك إخراجي للقيام بهذه النزهة. أشكر لك كرمك فالغداء كان لذيذاً والسيدة سرتني رؤيتها.

فردت الممثلة:

ـ وأنا كذلك يا عزيزتي.

بعد وصول السيارة إلى أبواب القصر، نفخ السائق زمور السيارة مرتين ليلفت اهتمام الحارس. ثم خرج ليفتح الباب

للركاب الثلاثة. قالت كلير عندما فتحت الأبواب:

ـ عودي ثانية إلى الدير... ولكن لا تهتمي، لن يكون هذا لوقت طويل يا حبيبتي. اورفوار.

طبعت قبلة على وجنتيها ثم سمعت جايسون يقول لها:

ـ مدام مون بلان ستتلقى تعليمات سفرك... وداعاً، كوني طيبة.

قال كلماته تلك ثم لكم ذقنها مداعباً، وكأنها ابنة اخته.

وقفت دونيس تراقب السيارة تبتعد، والتفتت كلير تلوح بيدها في حين امتنع جايسون عن الالتفات إليها.

أدركت دونيس متأخرة، أنها لم تسأله عن عنوان تستطيع من خلاله الاتصال به... تساءلت عما إذا كانت شقيقته ستمانع في استقبال غريبة في بيتها.

تم ترتيب سفر دونيس ومارغريت بالقطار إلى مدينة ليل، حيث ستلاقيهما والدة مارغريت وكان من المقرر أن تبقى دونيس في عهدة هذه السيدة حتى وصول السيدة غاردنر شقيقة جايسون... وصلت السيدة مايلز مع ولدين من أولادها فرافقوا الفتاتين إلى منزل أقارب لهم للبقاء يومين قبل سفرهم إلى دنكرك ثم بحراً إلى انكلترا.

بعد بضع ساعات وصلت السيدة غاردنر لتأخذ دونيس... كانت تشبه جايسون كثيراً إلا أنها لم تكن ديناميكية كشقيقها. ابنتاها روزي وكولين، كانتا بدينتين وشقراوين كأبيهما الذي وصل إلى المنزل بعد وصولهما بوقت طويل. بعد العشاء مباشرة انسحب إلى مكتبته، فلم تره ثانية تلك الليلة.



ما أن مضى عليها أسبوع هناك، حتى توصلت دونيس إلى استنتاج أن السيدة غاردنر، إنما تزوجت لسبب واحد، هو أن زوجها قادر على توفير كل وسائل الراحة المادية لها، ومنزل تحيطه أراض واسعة يشرف عليها بستاني... أما السيد غاردنر فكان يمضي معظم أوقات فراغه يلعب الغولف، ويتعشى في المدينة، ولا يصل إلى منزله إلا في وقت متأخر... ويبدو أنهما لم يكونا يتحدثان إلا عن أخبار الصحف ومشاغلهما الاجتماعية المشتركة. كانا ينامان في غرفتين منفصلتين وحمامين منفصلين، ولم تلحظ مطلقاً أنهما تبادلا نظرة عاطفية واحدة... وكان لفكرة اضطرارها قضاء عطلتها كلها معهما، أثر محبط على معنوياتها... ليس لأنها لم تشعر بالارتياح هناك فقط بل كذلك لأنها أحست بأنها حمل عليهما... أما الفتاتان فقد أحبتاها، خاصة الصغرى كولين... ولم يكن المنزل بالمكان المناسب لأن تكون دونيس فيه مفيدة بالمساعدة في أعماله وفي الطبخ.

وقت العشاء، في إحدى الأمسيات قالت السيدة لزوجها:

ـ لقد اتصل جايسون اليوم... انه في بروكسل، وسيبقى بضعة أيام للعمل. لقد دعانا لحضور الأوبرا يوم الأربعاء، فقلت له ان لديك اجتماعاً هاماً في هذه الليلة وانك ستنام في النادي. فقال إنه سيعيدنا إلى المنزل بنفسه حيث يقضي ليلته معنا.

مع أن دونيس لم تظهر شيئاً، إلا أن سعادتها بمثل هذا الخبر كان لا يقل عن السعادة التي غمرت الفتاتين. أردفت



بلا عنوان

السيدة:

ـ إذا كنت لا تمانع... سنذهب معك صباحاً إلى المدينة، حيث ستقوم الفتاتان بتعريف دونيس إلى معالم المدينة أثناء وجودي عند مزين الشعر.

احتلت زيارة بروكسل تفكير دونيس خلال الثماني والأربعين ساعة التالية... كانت خلالها تقنع نفسها بأن أي إنسان سيصاب بالإثارة عند زيارة مدينة لا يعرفها... ولكنها كانت تعلم أن رؤيتها لجايسون هي التي كانت تثير حماسها.

يوم الاثنين... حدث شيء مختلف غير متوقع تماماً.

كان لديها حمام صغير ومغسلة في غرفة نومها، ولكنها تشارك الفتاتين في حمام كبير واحد. فبعد أن قرأت كتاباً في الفراش حتى منتصف الليل، خرجت إلى الحمام دون أن تضع روباً فوق ثوب النوم، ظناً منها أن أهل المنزل نيام.

ولكنها عند زاوية الممر الذي يصل غرفتها بالممر الرئيسي العريض، شاهدت السيد غاردنر يتجه إلى غرفته... كان وقع أقدامه مخنوقاً فوق السجادة السميكة.

تراجعت دونيس خطوة إلى الوراء مذهولة:

ـ اوه!

ـ مرحباً دونيس!

راحت نظرته تتجول فوق جسدها كله وصولاً إلى قدميها الحافيتين. فقالت وهي تضم ذراعيها فوق صدرها، وتتنحى جانباً لتمر قربه بسرعة:

ـ أنا ذاهبة إلى الحمام.



فأمسك بيدها ليجرها إليه:

ـ اوه... لا تهربي يا حلوة. أراهن أنك لست باردة.

ضمها إليه، وكانت قبلته التي قاومتها أكثر كراهية من قبلة ذلك البحار... بذلت المزيد من الجهد لمقاومته فاختلطت كراهيتها بارتباك وخوف خشية أن تسمع السيدة صوتيهما فتخرج من غرفتها قبل أن تتمكن من تحرير نفسها منه.

ولكن مقاومتها أشعلته أكثر، وعندما تخلصت منه في النهاية هربت إلى الحمام وأغلقت الباب من الداخل مرتجفة تشعر بالغثيان.

بقيت فترة في الحمام خائفة من العودة إلى غرفتها... ولكنها عندما خرجت أخيراً، وجدت الممر غارقاً في الظلام. بحثت عن زر النور وهي تتوقع هجوماً آخر. لكن أحداً لم يكن بانتظارها. رغم ذلك، أوصدت الباب بالمفتاح للمرة الأولى منذ وصولها إلى هذا المنزل.

أمضت ما تبقى من الليل تفكر في طريقة ما للخلاص من منزل لم تكن تحس فيه منذ البداية بالراحة.

اليوم التالي لم يكن يوماً ممتعاً... فلقد كان للفتاتين آراء مختلفة عن كيفية قضاء اليوم قبل لقاء خالهما... أرادت كولين الذهاب إلى حديقة الحيوان. بينما أرادت الأخرى الذهاب إلى برج «أتوميوم» لرؤية ما فيه من معروضات علمية. وحتى تضع حداً لجدالهما قالت دونيس إنها تريد الذهاب إلى متحف المدينة، وهو اقتراح ندمت عليه فيما بعد لأنهن لم يتمتعن بوقتهن هناك.

بعد الغداء ذهبن لرؤية القسم التجاري من المدينة الذي لا يبعد كثيراً عن شقة خالهما جايسون.

لدى صعودهن إلى شقته في المصعد، تمنت دونيس لو أنها اشترت أي دواء يهدىء صداعها الذي أخذ يزداد سوءاً، كانت تعلم أن سبب الليلة السيئة التي مرت بها إضافة إلى جموع الناس وازدحام السيارات في العاصمة وهو أمر لم تعتده بعد.

كانت السيدة غاردنر هناك عندما وصلت الفتيات الثلاثة. وبينما كان لون بشرة دونيس يزداد ابيضاضاً منذ وصولها أوروبا، كانت بشرة جايسون تشتد اسمراراً فقد اكتشفت أن المكان الذي يدعى «غستاد» هو منتجع سويسري للتزلج قضى فيه جايسون وقتاً قبل سفره إلى لندن، وعودته إلى هنا، وسأل جايسون الفتيات بعد تحيتهن:

ـ ماذا كنتن تفعلن طوال اليوم؟

سارعت الفتاتان إلى إخباره بينما بقيت دونيس صامتة، تحاول الادّعاء إنها أمضت وقتاً رائعاً... ساعدها كوب من الشاي على استعادة حيويتها، وكانت مدبرة المنزل قد قدمت بسكويتاً طازجاً، وخبزاً أسمر وسندويشات من الجبنة والخيار، وكيك بالفاكهة، إلا أن دونيس لم تتناول سوى قطعة صغيرة بينما وفته الفتاتان حقه.

ذهبوا إلى الأوبرا بالتاكسي... نظرت دونيس إلى خارج السيارة وهي تحس بنبضات صدغيها تكاد تنفجر، ثم فجأة وضع جايسون يده على ركبتها، سائلاً:

ـ ماذا بك يا دونيس؟



ـ لدي صداع... لعله يزول بعد قليل.

نظر إلى شقيقته:

ـ هل معك شيء يمكن أن تأخذه لتخفيف الصداع؟ إذا لم يكن معك سأنزل عند أقرب صيدلية وسألحق بكم سيراً إلى الأوبرا.

فاعترضت روزي:

ـ ولكن ستفوتك بداية الأوبرا.

ـ لا... فنحن سنصل في وقت مناسب.

بحثت شقيقته في حقيبتها:

ـ يجب أن يكون معي بعض «الباراستيمول»... أجل... ها هي... لماذا لم تذكري أنك تعانين من صداع؟

قرد عليها جايسون:

ـ لأنها من ذاك النوع من البشر الذي يزداد ندرة يوماً بعد يوم. إنها تحتفظ بألمها لنفسها.

التفت إلى دونيس:

ـ كان يجب أن ألاحظ هذا وقت شرب الشاي، فأنت لم تتناولي شيئاً. وهذا ليس من عادتك. أيمكن أن تبتلعي هذه الأقراص دون ماء؟ أو أحضر لك بعض الماء عندما نصل.

ـ اوه... شكراً... سأبتلعها الآن.

شعرت بالاطمئنان لاهتمامه هذا بها، ولكن أنى له أن يعرف أن هناك ما يثقل تفكيرها وما من دواء في الدنيا قد يشفيها منه... آه ليتها تستطيع البوح له بسّرها ولكن كيف تفعل ومن ستشكوه هو صهره؟

بعد انتهاء العرض سار الجميع مسافة قصيرة إلى مطعم حجز فيه جايسون طاولة للعشاء. ثم عاد وحده بالتاكسي ليحضر سيارتهم المتوقفة في كراج تحت مبنى شقته.

قبل أن ينطلقوا إلى خارج المدينة كانت الفتاتان تغطان في النوم. أما دونيس فبقيت مستيقظة قربهما، تفكر في حجة مقنعة تقولها لجايسون حتى يبعدها عن منزل شقيقته. هي تذكر أنه حذّرها يوماً من الخداع. ولكن كيف تخبره الحقيقة عن ورطتها الحالية؟

تذكرت كيف نظرت ذلك الصباح إلى وجنتي السيد غاردنر الممتلئتين لحماً... فرغم رياضة الغولف الأسبوعية فلم يكن جسده ملائماً... تساءلت من جديد كيف أن سيدة مثلها تتزوج رجلاً مثله.

عندما اقتربا من المنزل، استيقظت الفتاتان، تثاءبتا، وأسرعتا هرباً من برد الليل بعد دفء السيارة.

حيّت دونيس جايسون وشقيقته بتحية المساء وأضافت:

ـ شكراً لك على هذه الأمسية الجميلة.

واتجهت إلى الدرج... لكنه قال:

ـ انتظري لحظة.

ـ نعم؟

ـ ثمة منبه في غرفتك؟

ـ أجل.

ـ فليدق إذن عند السابعة إلا ربع... أريد المغادرة عند الثامنة. ولكن أريد التحدث إليك قبل أن أذهب... سنلتقي في



السابعة صباحاً.

وافقت بارتباك... ماذا يريد أن يبحث معها؟

قبل السابعة بقليل وجدته في الردهة.

ـ سيكون اليوم حاراً... فلنخرج ولنتمشّ في الحديقة. لكن ضعي شالاً على كتفيك لأن الطقس سيكون بارداً في هذا الصباح.

أسرعت دونيس تحضر شالاً صوفياً وضمته على كتفيها قبل أن يغادرا المنزل عن طريق باب الحديقة. بدا هواء الصباح الباكر منعشاً.

ولكن جايسون لم يتكلم إلا بعد أن وصلا إلى ممر يقع بين ملعب التنس وحديقة المطبخ:

ـ لا أظنك سعيدة في هذا المنزل؟

ـ ما الذي يجعلك تعتقد هذا؟

ـ عندما يراوغ شخص في إجابة ما... فهذا يكون اعترافاً بأن حدس السائل مصيب... فمع من تجدين نفسك على طرفي نقيض؟ شقيقتي أم الفتاتين؟

ـ لست على خلاف مع أي منهن. فهن لطيفات معي... ولكنني أحس بأنني طفيلية عليهن ولو كانت الفتاتان أصغر عمراً، وشقيقتك بحاجة للمساعدة المنزلية لرميت بثقلي لمساعدتها، أو على الأقل حتى أطهو بعض الوجبات... ولكنني غير مفيدة أو نافعة في هذا المنزل.

توقف جايسون عند قمة سلم حجري يصل إلى حديقة منخفضة ثم وضع كلتا يديه على كتفيها وأدارها إليه.

ـ لا أحسب ما قلته هو سبب ما ظهر عليك من تعب ليلة الأمس. لا أنكر أنك كنت تعانين من الصداع ولكن كان ذلك قبل خروجنا من الأوبرا... وها أنت في هذا الصباح لا تبدين مشرقة أيضاً. لقد تغيرت كثيراً منذ آخر مرة رأيتك فيها... فما الذي يشغل بالك؟ هيا قولي!

أحست بدافع متهور يدفعها إلى أن تخطو إليه الخطوة الفاصلة بينهما فتلقي رأسها على كتفه، وتطلق العنان للكبت المحتقن في داخلها منذ ليلتين مضتا. ولكنها علمت أنها لا يجب أن تفعل. فالسيد غاردنر هو صهره، وهي مؤقتاً... ليست سوى عبء ثقيل عليه.

ضاقت عيناه وهو ينظر إليها:

ـ إذا لم تكن مشكلتك مع النسوة في العائلة، فلا بد إذن أن تكون مع جيلبرت... ولا تقولي لي انه كان غبياً فحاول مغازلتك.

فاحمّر وجهها:

ـ اعتقد أنها غلطتي جزئياً. كنت ذاهبة إلى الحمام من دون روب.

ـ يا إلهي! أهذا عذر؟ إنك فتاة صغيرة تعيش تحت سقف بيته. إنه دون شك رجل مجنون! وماذا فعل بك بالضبط؟

بدا على وجهه فجأة غضباً قاتلاً، أخافها: فقالت متوترة:

ـ إنه... لقد... قبلني.

ـ أهذا كل شيء؟ كل شيء؟ هل أنت متأكدة؟

ـ هذا كل شيء... أرجوك... اوه أرجوك! لا تقل شيئاً



عن الأمر يا جايسون... سيكون الوقع قاسياً على المسكينة زوجته.

ـ إنها تعرفه حق المعرفة... لم يكن مخلصاً لها منذ سنوات. والله يعلم لماذا تزوجته أصلاً. أما هو فقد تزوجها كما هو واضح لأنها ابنة أبيها الثري... أما من جهتها، فالسبب ذلك الإحساس الخطير الذي يسمّى الحب... حسناً... إذا كانت مغامراته الغرامية قد وصلت إلى مرحلة عدم قدرته على الابتعاد عن أي كان، فمن الأفضل أن ترحلي سريعاً... ولكن ماذا أستطيع أن أفعل بك؟

ـ ألا يمكن أن أسافر معك إلى لندن؟ لن أزعجك... حقاً. سأخرج معظم النهار لأشاهد المتاحف ومعارض الفنون.

فازدادت ابتسامته قليلاً وهو يقول:

ـ وهل هذه هي وجهة نظرك عن المتعة؟ معظم الفتيات في مثل سنك يفضلن رؤية واجهات المحلات.

ـ أنا لم أعتد بعد على ازدحام وضجيج المدن... لقد ذهبت مع الفتاتين يوم أمس بالمترو فوجدته مخيفاً، إن خوفي هذا غباء.

وصلا في سيرهما إلى شلالات اصطناعية تقع في منتصف حديقة الصخور. كان الماء يتدفق فوق الصخور مولّداً فقاقيع فوق البركة الكبيرة الواقعة عند أقدام الشلال... قال لها جايسون:

ـ ليس غباء. بل هو تعقل كامل.

أشار إلى الماء المتدفق:

ـ ما رأيك بهذا المنظر؟

ـ أنا أفضّل عليه ساقية طبيعية كتلك التي تمر خلف المنزل نحو القرية. هل رأيتها؟

ـ أنا لا أزور هذا المكان كثيراً بل آخذ الفتاتين لتقيما معي. أما صهري فلا أعبأ به البتة... وهذا يذكرني بالمشكلة. ماذا أفعل بك. لن أستطيع أخذك إلى شقتي لأنني مسافر عند الظهر. ومدبرة منزلي في إجازة.

ـ فلأسافر معك إلى لندن. أنا متأكدة من أن عائلة صديقتي مارغريت مايلز ستستقبلني...

ـ ومن عائلة مايلز؟

ـ إنهم أهل رفيقتي التي تشاركني الغرفة... لكن إن ذهبت قد تشك شقيقتك في أن هناك ما حدث في منزلها.

فكر في الأمر بصمت، أثناء اجتيازهما ممراً يقع بين المرجة الخضراء والجزء المفضل لها من الحديقة وهو جزء يكسوه العشب الأخضر والنرجس البري الساحر وسألها:

ـ هل تزعجك الإقامة وحدك في فندق؟

ـ أبداً.

ـ حسناً سأخبر شقيقتي أنك تريدين التمتع بزيارة المدينة وشراء بعض الأغراض قبل نهاية عطلتك. هي لن تشك إطلاقاً في الأمر لأنها معتادة على تغيير خططي بسرعة.

وهذا ما كان فبعد أقل من ساعة كانت تجلس قربه في السيارة أكثر سعادة وإشراقاً. وما ساعدها أن خروجها من منزل شقيقته كان خالياً من أي شكوك قد تساور الأخيرة.



فكرت دونيس في ذلك الزواج التعس، فقالت لجايسون:

ـ لقد قلت لي في الحديقة، ان الحب إحساس خطير... فهل تظنه خطيراً دائماً... أتظن هذا؟

ـ إذا كان يعمي القلب فهو خطير... بل قد يؤدي إلى الخراب.

ـ ولكن أيمكن للإنسان أن يكون معتدلاً في الحب؟

ـ مستحيل... ولكنني لا أعرف حقاً... فهذه حالة لا أعتقد مطلقاً أنها قد تؤثر بي. ولو كنت مكانك لابتعدت عنه... على الأقل مدة سنة أو سنتين. أعتقد أن خالتك نوعاً ما كانت على حق. فأمام الفتاة في هذه الأيام أمور مهمة كثيرة غير السعي وراء رفيق الروح وهذا ما يؤدي إليه الحب في مثل سنك.

ـ وكيف هو الحب في مثل سنك؟

ـ قد يكون عدة أشياء. فقد يكون الزواج بالنسبة لبعض الرجال الراحة المنزلية التي توفرها الزوجة. ولكن إذا لم تكن حياة العزوبية تزعج الرجل، فقد يحسن له الاحتفاظ بزوجة بدل سلسلة من النساء.

ـ أنت تجعل مسألة الاحتفاظ بزوجة تبدو كالاحتفاظ بكلب.

ـ إنها علاقة مشابهة، إذا فكر المرء ملياً في الأمر، فالكلب الجيد المدرب، المطيع... يمثل المزايا التي يرغب الزوج في أن تكون لدى الزوجة.

فردت بخفة وهي تنظر إليه:

ـ أتحسبني ساذجة لأصدق قولك هذا.

ظهر في خده الأسمر القريب منها، خط وقيع امتد من طرف ذقنه حتى عضلة فكه وهو يشير إلى مرحه.

ـ أجل... كنت أمازحك... ولكن ليس عندما نصحتك بالابتعاد عن فتنة الصبا.

ولم يوصلها إلى الفندق بنفسه كما توقعت... بل أخذها إلى مكتبه حيث عهد بها إلى سكرتيرته المتوسطة العمر، وقال لها قبل أن يخرج مبتعداً عن حياتها ثانية:

ـ قد أراك في الفصل الدراسي التالي.

فيما بعد أخذت السكرتيرة، الآنسة براونلغ، دونيس إلى الفندق حيث حجزت لها غرفة فيه. وقالت لها:

ـ إذا واجهت مشكلة خطيرة، اتصلي بي على هذا الرقم.

سجلت الرقم على مغلف أخرجته من حقيبتها ثم تابعت:

ـ هذا المغلف يحتوي على مال يفي مصاريفك حتى نهاية العطلة. أما تجوالك في المدينة فسيرشدك إليها حراس الفندق.

كانت تشاهد التلفاز عندما رن جرس الهاتف، فرفعت السماعة:

ـ آلو؟

ـ ماذا فعلت بعد ظهر اليوم؟

بدا لها وكأنه في الغرفة المجاورة. فردت عليه:

ـ ظننتك في لندن.

ـ أنا في لندن... اتصلت الآن. قبل أن تأوي إلى فراشك، ما هذا الصوت في الغرفة؟



ـ إنه التلفزيون... سأطفئه.

عندما عادت إلى الهاتف بدا لها أن الخط قد انقطع:

ـ آلو؟ أما زلت معي جايسون؟

ـ أجل... أنا معك.

ـ تبدو قريباً جداً. ومع ذلك فأنت بعيد... بعد الظهر تجولت في بروكسل، لاستكشافها.

ـ هل تعشيت؟

ـ أجل... ذهبت إلى مطعم صغير، تناولت فيه العشاء.

ـ كان يجب أن تتعشي في الفندق، ففيه مطعم، أتعرفين هذا؟

ـ أجل، ولكنه غالي الثمن... العشاء أرخص في المطعم الصغير.

ـ ربما... ولكنني أفضل أن تتعشي في الفندق... وإذا كنت تخجلين من النزول إلى هناك، اطلبي الوجبة إلى غرفتك. أما المصاريف فلا تأبهي بها.

ـ ولكنني أحس بها... اسمع... نسيت أن اسألك هذا الصباح عما إذا كنت عرفت ما تركته خالتي لي.

ـ سنبحث ذلك في المرة القادمة التي أراك فيها. سأتصل بك غداً. تصبحين على خير دونيس.

بعد أن قطع الخط أعادت السماعة إلى مكانها، تساءل عما إذا كان على موعد مع كلير دوڤال.

في اليوم التالي تابعت دونيس استكشاف المدينة، فاشترت للغداء سندويشات أكلتها على مقعد في حديقة عامة، وبالنسبة

لشخص اعتاد الخبز الفرنسي وجدت هذا الخبز دون طعم، فما كان منها إلا رمت بقاياه للطيور والحمام في الحديقة.

كانت في طريق العودة إلى الفندق عندما ظنت أنها تسمع صوتاً يناديها:

ـ هاي... دوتيس!

نظرت فيما حولها، فلمّا لم تجد أحداً ينظر إليها، حسبت نفسها تتخيل. فمن يمكن قد يعرفها في هذه المدينة؟

ثم تحركت سيارة تاكسي، كانت قد توقفت لافساح المجال لسيارة متوقفة للخروج من موقفها، وفي الجهة المقابلة للشارع، شاهدت أليكس مايلز، شقيق مارغريت الأكبر الذي لا يسكن حالياً مع عائلته. وكان قد قابلها يوم التقت عائلته في مدينة ليل.

قال مبتسماً بعد أن اجتاز الشارع.

ـ مرحباً؟ ماذا تفعلين هنا؟

ـ أهلاً أليكس... ما أروع رؤيتك!... أعيش هنا الآن، فما عدت أسكن مع عائلة غاردنر... لأنني لم أستطع فرض نفسي عليهم طوال الإجازة.

ـ وأين تقيمين الآن؟

أخبرته باسم الفندق، فبدت عليه الحيرة عند سماعه فسألها دهشاً:

ـ هل أنت وحيدة هناك؟

ـ نعم، لِمَ لا؟ فالمدينة مثيرة بالنسبة لي.

ـ أجل... هذا في النهار، لكن ماذا عن الليل؟ هل تذهبين



إلى المسرح وحدك مثلاً؟

ـ لست مضطرة للخروج في الليل. فلدي تلفزيون في غرفتي، ولدي بعض الكتب اقرأها.

أشارت إلى كتب تضعها تحت إبطها كانت قد اشترتها من متجر لبيع الكتب المستعملة.

ـ لماذا لا تخرجين معي الليلة؟

ـ سأحب هذا... ولكن شرط أن يدفع كل منا حسابه.

كانت تعرف أنه يدرس الطب وهو لا يملك المال الكثير.

ـ حسناً... إذا كنت تصرين. عليّ الإسراع الآن، وسأمر بك حوالي السابعة، لا ترتدي ثياباً فخمة...

لوح لها بيده ومضى في طريقه... وبعد برهة قصيرة، أخذت تركض وراءه صائحة:

ـ أليكس... أليكس انتظر لحظة.

لحقت به، فتوقف:

ـ ما الأمر؟

ـ لقد نسيت... لن أستطيع الخروج الليلة، فوصيّ سيتصل في وقت لا أعرف ما هو تحديداً... ولكن ليس قبل التاسعة على الأرجح.

ـ اتركي له رسالة تخبرينه فيها أنك ستعاودين الاتصال به بعد عودتك؟

ـ لا أستطيع... فهو شديد التزمت بشأن خططه.

ـ إذن فليكن موعدنا غداً.

ـ أيمكن هذا...؟ اوه هذا عظيم.

وكما اقترح جايسون، تناولت عشاءها تلك الليلة في غرفتها. ثم درست بعد ذلك كتاب دليل بروكسل بانتظار المخابرة.

مرت الساعة التاسعة، ثم العاشرة، ولما قاربت الساعة الحادية عشرة بدأت تخشى من أن يكون قد نسي وعده لها بالاتصال، أو أنه إن تذكر، يظنها نائمة.

بدأ الإحساس بالنعاس يكتسحها لأنها تخلت عن سهرة مع أليكس من أجل مخابرة قصيرة قد لا تتعدى الدقائق... لما رن جرس الهاتف أخيراً. كان أول سؤال له:

- ماذا تشاهدين على التلفزيون الليلة؟

- لست أشاهد التلفزيون، أنا أقرأ.

- سأعطي تعليماتي غداً لسكرتيرتي كي تتصل بالمكتبة التي أتعامل معها لتشتري ما تريدين منها.

- اوه... جايسون... ولكنني لست بحاجة إلى كتب جديدة. فأنا سعيدة بشراء القديم منها... على فكرة التقيت بشقيق مارغريت مايلز بعد الظهر وقد طلب مني العشاء معه غداً.

ساد الصمت على الطرف الآخر، مما دفعها للقول:

- ألديك أي اعتراض على هذا؟

- كم عمره...؟ وماذا يعمل؟

- أظنه في الثانية والعشرين وهو يدرس الطب... إنه يشبه مارغريت... اوه ولكنك لا تعرفها... إنهم أناس طيبون.

- إلى أين ستذهبان؟



- لا أعرف... قال شيئاً عن عشاء في مقهى.

- لا بأس ما دمت بعيدة عن الشراب والمخدرات.

- لن يستطيع تحمل مبالغ كهذه سأكتفي بشرب العصير.

- لا تتأخري.

شيء في رنة صوته دفعها إلى القول:

- أليكس ليس من فئة الذئاب.

- أليس كذلك؟ ماذا تعرفين عن تلك الفئة؟

- لا شيء... لكنني سمعت حديث الفتيات عنهم.

- لا تعرفين شيئاً أبداً. لا تثقي بكلمة يقولها الجنس الآخر مهما تكن. فكل الرجال في العشرينات من عمرهم، أكانوا من فئة الذئاب أم لا، يلاحقون الفتيات الجذابات لغاية واحدة والعديد من بنات جنسك مستعدات للإذعان.

ذكرتها لهجته بخالتها... فردت بخشونة:

- ربما من تعرفهن تعم ربما... ولكن ليس كلهن كذلك.

- سأتصل بك غداً عند منتصف الليل فكوني هنا قبل الموعد أرجوك. تصبحين على خير.

أقفل السماعة تاركاً الغضب يغلي في داخلها، مانعاً عنها القدرة على التركيز على القصة التي بدأت بقراءتها. هي ترضى بأن يملي عليها إرادته، ولكنها لم تكن تعتقد أنها تستحق هذه المعاملة أو هذه اللهجة الباردة التي واجهها بها.

لم يدم إحساسها بالرغبة في تحديه طويلاً... فهي تعي تماماً إنها مدينة له كثيراً لذا لا تستطيع ترك مشاعرها تتمرد طويلاً...

هل اهتمّ يوماً بإنسان ما وأحبه؟ أم أنه كخالتها متحجر العواطف، غير قادر على الأخذ والعطاء؟

أمضت معظم اليوم التالي تزور المعرض الوطني الفني، الذي يحوي مجموعة رائعة من لوحات غوغان، وفان كوخ، وبقيت هناك حتى موعد الإقفال. بعد ذلك عادت سيراً إلى الفندق فاستحمت قبل أن ترتدي أبسط فساتينها لتخرج مع أليكس.

رافقها أليكس لحضور مسرحية في أصغر مسرح في بروكسل. بعدها تناولا العشاء لا في مقهى، بل في مطعم بيتزا رخيص، ولكن جودته عظيمة.

رغم اتفاقهما على أن يدفع كل منهما ثمن وجبته إلا أنه رفض أن يتركها تدفع.

ـ أقبل دعوتك إلى القهوة عندما أعيدك إلى الفندق.

في صالون الفندق احتسيا القهوة... ولكنه قبل أن يتركها اتفقا على اللقاء ثانية في الليلة التالية... كانت الساعة الثانية عشرة إلا عشرين دقيقة عندما صعدت دونيس إلى غرفتها... وعند منتصف الليل تماماً، رن جرس الهاتف.

ـ هل تمتعت بالسهرة؟

ـ أجل... كثيراً، شكراً لك... شاهدنا مسرحية ثم تناولنا البيتزا في أحد المطاعم.

ظنت أنه سيسألها عن المسرحية، ولكنه قال:

ـ وهل قبلك قبلة المساء؟

فصاحت:



ـ لا!

ـ عجباً! ولمَ لا؟

ـ لأنه صديق... ألا تتوقع أن يكون بين شخصين صداقة فقط وإن كانا من جنسين مختلفين.

ـ ليس قبل أن يصبحا أكبر سناً. هل ستريانه ثانية؟

ـ أجل... غداً.

ـ اتصلي بي إذن من باب التغيير. هل معك قلم لتسجيل الرقم؟

سجلت الرقم على دفتر الأرقام قرب الهاتف، وأعادت قراءته له.

ـ صحيح... تصبحين على خير دونيس.

ـ تصبح على خير جابسون.

أعادت السماعة إلى مكانها، وقد خاب أملها بهذه المكالمة الخاطفة. في اليوم التالي، بعد عودتها من جولتها المعتادة في المعارض الفنية، ناولها موظف الاستقبال، مع المفتاح، رسالة من مركز الهاتف في الفندق تقول إن السيدة مايلز اتصلت بها وتطلب منها الرد على الاتصال.

عندما اتصلت بمنزل آل مايلز أجابها الابن الصغير الذي سارع إلى استدعاء أمه التي بدت مقطوعة الأنفاس وهي تجيب:

ـ مرحباً دونيس... لقد اتصل أليكس بالأمس، وقال إنكما ذهبتما إلى المسرح معاً. عرفت أنك وحدك الآن. فهل تهتمين بقضاء آخر يومين من إجازتك معنا؟

ـ سأحب هذا سيدة مايلز، شكراً لك. ولكن عليّ أولاً

الاتصال بوصيّ قبل قبول الدعوة. سأتصل به الليلة، وغداً أعطيكم الجواب.

ـ أجل... افعلي هذا أرجوك. لن أصنك بمارغريت لأنها ثرثارة كبيرة. عندما تلتقيان تتحدثان ما شاء لكما ذلك. وداعاً الآن يا عزيزتي.

في المساء أخذها أليكس للعشاء مع صديق يعيش مع صديقه في شقة خاصة... بعد العشاء اتصلت بجايسون من غرفتها، ولكنه لم يكن هناك، فتركت رسالة له.

عند ظهر اليوم التالي، اتصلت به ثانية... ولكن الصوت الذي رد عليها لم يكن لجايسون... بل لمرأة تسأل بنعاس:

ـ إنه هنا... من المتكلم؟

ـ دونيس ايفانز.

لم تزعج المرأة نفسها بتغطية السماعة وهي تنادي بصوت مرتفع.

ـ ثمة فتاة تتصل بك يا حبيبي، تدعى ايفانز... لم أفهم اسمها الأول.

جاء صوت جايسون منزعجاً:

ـ ماذا بك بحق الله للاتصال بي الآن؟

ـ أريد التحدث إليك... قبل أن تخرج... كيف لي أن أعرف أنك ما زلت في الفراش مع... مع إحدى... تسائك.

فرد ببرود:

ـ أنا لست في الفراش بل أحلق ذقني... وصلتني رسالتك ليلة أمس... فماذا تريدين الآن؟



ـ أريد إذنك حتى أقضي يومين أو ثلاثة مع مارغريت مايلز وعائلتها.

ـ وكيف ستصلين إلى هناك؟

ـ بالمركب عبر القنال إلى دوفر حيث ستلقاني السيدة مايلز ثم أعود مع مارغريت.

ـ بكل سرور. هل هذا كل شيء؟

ـ أجل شكراً لك.

ـ سأتابع حلاقة ذقني إذن.

أعادت السماعة إلى مكانها وهي تعلم أنه غاضب منها... ولكن لماذا يغضب وهو لم يحاول اخفاء علاقاته الماضية؟

● ● ●

## ٤ ـ في عينيه وميض

كان هذا آخر اتصال به خلال إجازتها، لأنه لم يتصل بها ولأنها لم تجرؤ على الاتصال به. ذلك أن غضبه ترك ظلالاً عليها منعتها من التمتع بإقامتها مع آل مايلز.

قبل رحيلها مع مارغريت إلى فرنسا، سألتها السيدة مايلز عما إذا كانت ترغب في قضاء بضعة أيام معهما في إجازة الصيف.

ـ لقد ترك أحد أعمام زوجي منزلاً له في اسكتلندا نستخدمه أربعة أسابيع في الصيف ثم نؤجره ما تبقى من أيام الصيف. يسرنا انضمامك إلينا، إذا أحببت.

ـ سأحب المجيء.

ـ إذن اعطني عنوان وصيك لأدعوك رسمياً...

ـ إنه مسافر الآن... ولا أعرف أين سيكون، ولكن سكرتيرته في بروكسل، الآنسة براونلغ تعرف مكانه، فاكتبي لها.

ـ وما اسمه؟

ـ اسمه ج... كونر.

من حسن حظها أن اسمه لم يعنِ لعائلة آل مايلز شيئاً. بعد



أن انطلقت ومارغريت راحت تفكر إن اخطأت في قبول هذه الدعوة فقد يكون لجايسون خطط أخرى.

بعد أسبوعين من رجوعهما إلى المدرسة، كتبت السيدة مايلز لابنتها تقول: إن السيد كونر قبل بسرور قضاء دونيس الوقت معهم، وإنه بالمقابل، ورداً على ضيافتهم يدعو ابنتهم مارغريت لمرافقة دونيس لقضاء بضعة أيام في قبلته الواقعة على شاطىء الريفيرا الفرنسية.

خلال الأسبوعين اللذين قضتاهما في اسكتلندا رافقهما أليكس فاختبرت دونيس للمرة الأولى في حياتها السعادة الخالية من الهم.

في الليلة الأخيرة على رحيلها لمّح لها أن اتفاقهما في الصيف قد يصبح علاقة جدية فيما بعد. ولكنها كانت تعرف أن أليكس لن يكون لها سوى صديق شاركته بضع لحظات دافئة وبضعة عناقات. ولكنها لم تعرف سبب ثقتها هذه.

بعد يومين من هذا عادت العائلة كلها إلى لندن... أما الفتاتان فعادتا إلى الريفيرا بالطائرة.

عندما استقبلتهما على المطار، سيارة فاخرة بقيادة سائق صاحت مارغريت:

ـ يا إلهي، ما هذا الترف؟ أنا واثقة من أنك تخبئين شيئاً عنا، وأنك وريثة ثروة لا تصدق.

ـ اؤكد لك أنني لست وريثة شيء. ربما تكون المدام اويستاس هي الوريثة.

المدام اويستاس هي المشرفة على الفيلا التي تبعد ساعة

عن المطار. وقيلا اليغانت هذه مبنية في القرن الثامن عشر وسط حقول واسعة من الكرمة تحتل جزءاً كبيراً من تلال تبعد كيلومترات عدة عن الشاطىء.

اعتقدت مارغريت أن المدام هي مالكة القيلا، ولكن دونيس شكت في أن يكون صاحبها جايسون. أما هذه المرأة فهي ليست أكثر من مديرة منزل فيه رفيعة المستوى... لم تكن قد شاهدت جايسون منذ الربيع، ولكنها تلقت منه رسالة عملية، شرح لها فيها أن مدخول خالتها كان راتب مات بموتها. ثم طلب منها أن تفوضه التصرف بما تبقى من مال حتى يستثمره لها بطريقة مفيدة، كما طلب منها أن تقبل منه المساعدة حتى سن الرشد، وعندها، كما يعتقد، تكون الأموال المستثمرة قد تحسنت.

كتبت له الرد، توافق فيه على القيام بما يريد، مع أنها كانت تحس بأن ليس من اللائق أن تتركه يعيلها، ومع ذلك فقد كانت تخشى أن لا تراه ثانية إذا أصرت على الاستقلال بعيشها.

خلال إقامتها وزميلتها في فرنسا، تمنت رغم وجود مارغريت، مجيئه لزيارتها ولكن الأيام الحارة، والليالي الرطبة، مرت دون أي أثر له. عندما عادتا كانت هي أكثر اسمراراً ومارغريت أكثر وزناً. في انكلترا قضتا آخر أيام الإجازة مع عائلة مارغريت قبل بدء الفصل الدراسي القادم.

لم تشاهد دونيس جايسون ثانية حتى حل عيد الميلاد. فقبل انصراف الفتيات إلى بيوتهن تلقت رسالة من الآنسة براونغ، تطلب منها السفر إلى سويسرا، وجدت في الرسالة



تذكرة سفر وشيك باسم المدام مون بلان لتغطية مصاريف بشراء أدوات وملابس التزلج لها. وفي الرسالة كتبت أيضاً:

- «رُتب لك عقد تأمين كامل، وستساعدك الآنسة دودل المسؤولة عن الشاليه هناك، في كل ما تحتاجينه».

ما أراحها عند وصولها أن الآنسة دودل طلبت منها مناداتها بنانسي كما يفعل الجميع. وكانت دونيس قد كبحت أي سؤال تبادر إلى ذهنها، حتى وصلتا إلى الشاليه المبني من جذوع الأشجار الضخمة الذي أحيط به عدة شرفات مستديرة.

سألتها دونيس:

- هل السيد كونر قادم؟

- أجل... سيأتي ليلة الميلاد مع عشرة أشخاص.

رافقتها الآنسة إلى الطابق العلوي، ومنه إلى غرفة نوم حميمة تطل على حقل تزلج يغطيه الثلج الأبيض وتحدّه غابة خضراء.

في اليوم التالي رافقت دونيس للتسوق. فنصحتها بشراء بذلة تزلج صفراء تتصل ببعضها بعضا بواسطة سحابات لتشكل سترة وبنطلوناً. إضافة إلى بزة التزلج، نصحتها بشراء قمصان داخلية من القطن مع سراويل طويلة، ومداس خاص للتزلج، وجهاز تزلج طويل، ونظارات واقية، وقفاز جلدي، وجوارب صوفية. ثم قالت لها:

- وستحتاجين إلى «حقيبة واقية» للمال ومستحضرات التجميل... فلو وضعت مثل هذه الأشياء في جيبك لأفسدت شكلك، وهذا مؤسف خاصة وأن لك جسداً رشيقاً جميلاً.

كان آخر ما اشترته لها بطاقة موسمية عليها صورة دونيس وضعتها في سلسلة طوقت بها عنقها، تستطيع إخراجها واستخدامها دون الاضطرار إلى دفع المال.

أعطت نانسي، الخبيرة بالتزلج، دروساً خاصة لدونيس مدة ثلاثة أيام... ثم اضطرت إلى تركيز اهتمامها لتهيىء نفسها لقدوم جايسون وضيوفه... كانت خلال فترة تدريبها تتلقى تعليمات عدة من مدرب جميل أشقر، كان يغازل تلميذاته... ولكن لم يكن لعينيه الزرقاوين أثراً في نفسها.

صباح الميلاد، شاركت شاباً يرتدي بذلة تزلج حمراء لماعة اسمها «سيلوبيت» في الصعود إلى مقعد معد لشخصين وقد قيل لها إن هذا المصعد صعب للمبتدئين. كانت قد أحست بالتوتر خوفاً من الوقوع والاضطرار إلى الرجوع حتى آخر الصفوف.

ولكن كان من حسن حظها أن رفيقها لم يحدثها بل تركها حتى تكون يقظة حذرة أثناء القفز من المقعد في الوقت المناسب. وقد أدركت أن من الخطر ترك المقعد قبل الوقت المحدد، إذ يجب الانتظار إلى أن يبدأوا بالارتداد.

عندما وصلت إلى القمة بسلام، أطلقت تنهيدة ارتياح، وكادت تتمتم لرفيقها بالوداع باللغة الفرنسية، حين قال لها بالانكليزية:

- ألم نلتق من قبل؟

- اوه... دايفد.

- كنت أعرف أنني أعرفك. ولكنني ما زلت أجهل من أنت. اخلعي نظارتك.



كان شعرها داخل قبعة صوفية، خلعتها ثم نزعت نظارتها وتركتها معلقة في رقبتها. بدت بعد أسبوع من هواء الجبال، والشمس، والنوم المبكر، بصحة جيدة.

وقف الشاب لحظات يحدق إليها ثم صاح بذهول:

- يا إلهي! أدونيس! تساءلت دائماً عما حلّ بك.

فردت تصحح له:

- بل دونيس... دونيس ايفانز.

- اوه... أجل... آسف... إنها زلة لسان.

فابتسمت له:

- لقد مر وقت طويل، وأنا دهشة لأنك عرفتني.

- وكيف أنسى؟ إن من حسن حظي أن أجدك وحدك.

- أنا الآن وحدي... فهل أنت هنا مع عائلتك؟

هز رأسه نفياً وشرح لها أنه مع جماعة من شبان يقيمون في شاليه يملكه أهل أحدهم، وذكر أن الفتاة التي ترافقه مرضت في آخر لحظة. فتركته وحيداً.

- لم أكن أعرفها جيداً، لهذا لم يخب أملي. ولكنني لم أكن أتوقع أن التقي بمن أعرفه... امرأة أجمل منها بمرات عديدة.

- آه... ولكنني مبتدئة في التزلج، وأنت تبدو خبيراً.

- لست بالخبير، ولكنني أتزلج منذ كنت صغيراً. متى بدأت التزلج؟

عندما أخبرته شعرت به يكتم ضحكته ولكنه لما رآها تتزلج لم يكبح ذهوله:

ـ لا أصدق أنك لم تتعلمي التزلج إلا منذ أقل من أسبوع... إنك مع بعض التمرين ستصبحين رائعة.

كانت قد قالت لتانسي إنها ستتغدى في المقهى، ولكن دايفد رافقها إلى الشاليه معه، حيث قدمها لأصدقائه.

كانا خلال تزلجهما قد أخبرا بعضهما بعض ما جرى لهما منذ آخر مرة التقيا بها. وقبل أن تلتقي برفاقه، سألته أن لا يذكر علاقتها بجايسون كونر أمامهم. فقال معلقاً:

ـ أما زال اسمك بعيداً عن الأضواء؟ إن هذا لغريب! ألم يحاول قطّ التقرب منك؟

ـ إني لا أكاد أراه... أذكر أن المرة الأخيرة التي رأيته فيها كانت في الربيع. جايسون ليس بالذئب الذي يعتقده الناس.

لم تكن واثقة من أن رفاقه يعجبونها، فمعظمهم كان في أواسط العشرين من عمره. وكلهم، حسب قول والدة مارغريت، من النوع المتعجرف. ولو لم تلتق بدايفد وتزلجها معه بعد الغداء، لعادت إلى الشاليه لتكون هناك عندما يصل جايسون. ولكن دايفد أشار إلى أن المجموعة قد لا تصل قبل وقت متأخر. ومن الأفضل لها أن تتزلج معه بدل الانتظار وتضييع فرصة التمرين.

كان النهار المشرق قد بدأ يُظلم عندما عادت إلى الشاليه، شاهدت في الخارج آن غرفه كلها مضاءة. فعلمت أن جايسون وأصدقاءه قد وصلوا قبل وصولها. شدت حقيبتها المعلقة على وسطها إلى الأمام، ثم أخرجت أحمر الشفاه ووضعت قليلاً منه، ثم خلعت القبعة ومررت مشطاً في شعرها.



في الردهة خلعت مداسها الضخم وهي تصغي إلى همهمة الأصوات الآتية من غرفة الجلوس الكبيرة، التي يحيط بها رواق مرتفع في وسطها درج يوصل إلى غرف النوم الواقعة في الطابق الأول. بينما كانت هناك تنزع مداسها أطل عليها جايسون:

ـ مرحباً... هل تمتعت بالتزلج؟

ـ مرحباً... أجل لقد أمضيت وقتاً رائعاً شكراً لك.

تقدم إلى جانبها، فوقفت لتخلع «الأنوراك» فإذا بها تشعر أنه أطول قامة وأعرض منكباً عما تذكره بينما كان يلكم ذقنها مازحاً، قال بحيرة:

ـ هل هذا المظهر المتألق مرده إلى التمرين، أم أنك منجذبة لمدرب التزلج كما المئات غيرك؟

كان يتحدث وكأنه يوجه كلامه لابنة ستة عشرة.

ـ لا... بل السبب هو التمرين، صحيح أن مدربي فاتن، ولكنه ليس من الصنف الذي يعجبني؟

ـ اوه؟ وما هو الصنف الذي يعجبك؟

تساءلت في نفسها كيف ستكون ردة فعله فيما لو تجرأت وقالت له... صنفك أنت ولكنها سارعت إلى القول:

ـ احزر من التقيت اليوم. إنه دايفد، أتذكره؟ إنه ابن صديقة شقيقتك. كان يعمل خادماً في اليخت يوم أنقذتني.

ـ وهل هو من الطراز الذي يعجبك... هه؟

ـ لست أدري... الوقت مبكر لأعرف هذا.

ـ تعالي لأعرفك إلى أصدقائي.

ـ أريد أن استحم وأغيّر ملابسي أولاً؟

ـ حسناً... كما تريدين... سأراك لاحقاً.

ابتعد عنها متوجهاً إلى حيث يجتمع رفاقه.

لم يكن هذا اللقاء الذي كانت تترقبه بفارغ الصبر، تمنت حينها لو كبحت لسانها ومنعته عن ذكر اسم دايفد، فقد حسبها مهتمة به.

كان جايسون مستغرقاً في الحديث مع سمراء مذهلة عندما دخلت دونيس إلى قاعة الجلوس بعد نصف ساعة، تتطلع إلى المجتمعين هناك. في البداية لم ينتبه إليها أحد. فأحست بالخجل من الاختلاط بهم. ثم هبت امرأة أنيقة عن الأريكة ودنت منها مبتسمة:

ـ أنا بيتي كلارك... أميركية المولد، فرنسية الزوج... كيف حالك، آنسة ايفانز؟ ادخلي وقابلي عائلتي.

قدمت لها زوجها ريمون، وابنتها المتزوجة كوزيت وزوجها جان، وولديهم المراهقين، جاك وميشال.

أما الأربعة الآخرون فكانوا كباراً: كيرك وإيلين هيويرث وبيتر دول، وسمراء، تدعى سامنثا آرك، التي علمت على ما يبدو من خلال الطريقة التي تبتسم بها إلى جايسون أنها آخر علاقة له.

بعد العشاء، قامت دونيس وكوزيت بمساعدة الصبيين بتزيين شجرة الميلاد في إحدى زوايا الغرفة. وقالت نانسي التي تشرف على الشابين منذ سنوات عدة، إن من عادته وضع الهدايا تحت الشجرة. على ألا تفتح إلا بعد عشاء ليلة الميلاد، وقضاء النهار مع ضيوفه بالتزلج.

آوى الزوجين هيويرث إلى الفراش باكراً بينما بقي الجميع



حتى وقت متأخر، يشربون الشراب الساخن اللذيذ ويأكلون قطع البسكويت المنزلية.

كانت ليلة الميلاد كما تصورتها دونيس على الدوام: حقول ثلج ومرتفعات بيضاء تلمع زمهريراً تحت نور القمر الفضي، كانت نوافذ الشاليهات الأخرى مضاءة، وأنغام أوركسترا الأناشيد الدينية تصدح من المسجلة، ورائحة الصنوبر وأغصانها تعبق أكثر في دفء المكان الذي جعل من النار المتأججة في الموقد أكثر اتقاداً. كانت السعادة تبدو على الجميع.

اعتذرت دونيس لتنام في الوقت نفسه مع الصبيين ولكن كوزيت بقيت مع زوجها، وكذلك جايسون.

من طبيعة دونيس الاستغراق في النوم حالما تضع رأسها على الوسادة إلا أنها الليلة، رغم كوب الحليب الساخن والمجهود الذي بذلته في التزلج وجدت نفسها مستيقظة.

بعد ساعة من الفشل في الاستغراق في النوم أقلعت عن القراءة، بقيت جالسة في فراشها في الظلام، تنظر عبر زجاج النافذة إلى الخارج... فجأة انفتح بابها ودخل شخص ما. بينما كان يمر أمام النافذة، تعرفت إلى شكل جايسون الطويل... فهمست مذعورة:

ـ ثمة خطب؟

ـ من المفروض أنك نائمة... فلماذا أنت مستيقظة؟

مدت يدها لتضيء المصباح، فرأته يقف عند أسفل فراشها، وإحدى يديه في جيب روبه، والأخرى خلفه.

ـ لست أدري... ثم استطع النوم.

ـ حسناً ولكنني أحس بالنعاس، ولا أحب أن أطيل تمثيل دور «بابا نويل». اتصلت بي صديقتك مارغريت وسألتني ما إذا كنت سأراك في الميلاد، فلمّا أجبتها بـ «نعم»، أرسلت إلي هذه إلى المكتب وطلبت تعليقها على سريرك في منتصف الليل.

أخرج من خلف ظهره جورباً أحمر مربوطاً بشريط فضي، مليء باللفائف...

ـ قالت لي إنك لم تُهدي هدية كهذه قبل الآن... ومن المفترض أن تكون مفاجأة لك عندما تستيقظين... ولكنني أعتقد أنك لن تستطيعي الآن مقاومة اغراء فتحه.

ابتسم، ثم وضع الجورب في حجرها... فقالت:

ـ ما ألطف صنيعها هذا... صحيح... فأنا لم أُهدَ هدية ميلاد في جورب من قبل.

بدأت تفتح الجورب، فجلس جايسون على حافة السرير يراقبها تخرج اللفائف المحتوية قطع من الشوكولا الصغيرة وحلوى المندرين، والجوز، وقطعة حلوى بالسكر على شكل فأرة هي دون شك من صنع والدة مارغريت، ودون شك إن جميع أفراد العائلة يتلقون هدية كهذه وإن كانوا في سن ناضجة.

فتحت إحدى اللفائف الأخرى، فإذا هي عبارة من جرس ذهبي صغير مُهدى من أصغر أفراد العائلة... قال لها جايسون:

ـ ربما يساعدك كوب من الشوكولا الساخن على النوم، سأحضّره لك.



ـ وهل ستوقظ تانسي؟

ـ يا فتاتي العزيزة، هل تظنين أنني غير قادر على شيء بسيط كهذا؟

حين عاد إليها، كانت قد فتحت كل الهدايا الصغيرة ورتبتها مع البطاقات على طاولة الزينة. وكانت تحاول الصعود إلى الفراش عندما دخل يحمل في يده كوباً كبيراً له مقبض، يتصاعد منه البخار وضعه على الطاولة الصغيرة قرب السرير... فسألته:

ـ لقد قابلت مارغريت إذن.

عاد إلى الجلوس على حافة السرير، فرأته يلبس تحت الروب بيجاما رمادية، لا يرتدي سترتها إذ كان يبدو صدره الأسمر عارياً من خلال فتحة الياقة.

ـ لا... لم أكن في المكتب ساعة وصلت، ولكنني حدثتها على الهاتف بعد أن اتصلت بي السكرتيرة على مضض.

ـ لا بد أن صوتك أوضح لها أنك لست ذلك الرجل العجوز الأشيب الذي طالما تصورته عائلتها.

ـ ليس بالضرورة، فالأصوات عادة تضلل المرء... تفضلي هديتي هذه. وثمة هدية أخرى لك تحت الشجرة. ولكنها شيء صغير اشتريته لك بالأمس، وأظن أنه يناسبك.

كانت اللفافة طويلة ورفيعة، مما يوحي بأنها قلم حبر، ولكن الورقة كانت تخفي علبة فيها علبة جلدية رفيعة، فتحتها فإذا هي سوار أنيق فيه ستة أحجار كريمة تتصل ببعضها البعض عبر سلاسل ذهبية صغيرة... أخرجتها بحذر من علبتها لتضعها على معصمها الأيسر:

ـ اوه. . . ! جايسون! إنها جميلة جداً!

مال إلى الامام ليشبكها لها. . . قائلاً دون اكتراث:

ـ أجل. . . إنها تناسبك تماماً. . . وهذا ما اعتقدته. إن لك معصماً جميلاً.

ـ صحيح؟

دهشت من دقة ملاحظته، فركضت بتهور أمامه ووضعت يديها على كتفيه ثم طبعت قبلة حارة على خده الأسمر. قائلة له بعد ذلك:

ـ شكراً. . . ميلاد سعيد لأطيب وألطف وصي.

التفت يداه حول خصرها، مما جعلها تحس رغم سماكة غلالة نومها أن قماشها ناعم رقيق.

ارتدت إلى الخلف تجلس على كعبيها، وانزلقت يداها عن كتفيه لتستريحا على عضلات صدره. . . اعتقدت لهنيهة أنه سيرد لها قبلة العيد، إنما ليس على وجنتها لأنه كان ينظر إلى شفتيها، ولأن يديه راحتا تجذبانها. مع أنها لم تحاول المقاومة، عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة قائلاً:

ـ أظن أن في انفعالك بعض المبالغة يا فتاتي. . . فاشربي الشوكولا واخلدي للنوم. فلا أريد أن تكوني تعبة في الغد فتخسرين بذلك متعة التزلج. . . تصبحين على خير. . . وميلاد سعيد.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما استيقظت في اليوم التالي. . . وعندما نزلت إلى الطابق الأرضي كان الجميع قد خرج إلا نانسي. لذلك بقيت لتساعدها في تحضير الغداء. . .



أما جايسون فلم يغط في النوم كما فعلت هي، بل كان أول الخارجين. . .

عند الساعة الواحدة تجمع الجميع لشرب المرطبات، ثم لتناول غداء خفيف على الشرفة الكبيرة. وكانت دونيس قد رافقته عبر منظار مكبر وهو يتزلج مع سامنتا، كان منظرهما جميلاً.

قالت نانسي:

ـ كان يجب أن يشترك السيد كونر في مسابقات أولمبية.

تذكرت دونيس هذا الكلام عند انتهاء الغداء، وذلك أثناء اقتراحه تبديل الرفقة بحيث تذهب سامنتا مع بيتر وتذهب دونيس معه. فاحتجت:

ـ اوه. . . لا. . . لن أستطيع التزلج معك، فأنا مبتدئة ليس إلا.

ـ لا بأس في هذا. . . سأعلمك.

كانا يجلسان قرب بعضهما بعضاً، وما إن فتحت فمها تزيد احتجاجها حتى أحست بركبته تضرب ركبتها من تحت الطاولة، ولاحظت في عينيه نظرة لها معنى. . . مع أنها لم تدر بالضبط ما يقصد.

فيما بعد شرح لها السبب وهما يصعدان جنباً إلى جنب في المصعد:

ـ لدي سبب محدد للجمع بين سامنتا وبيتر قدر الإمكان. فقد مرا معاً بزمن عصيب. فقد قتل زوج سامنتا في حادث تفجير منذ سنتين. وفي الوقت نفسه تقريباً زوجة بيتر تركته

لتهرب مع رجل آخر. ثم طلقها... وأظنه وسامتنا بحاجة لبداية جديدة، وقد ينجحان معاً.

كان لقوله هذا أثره فيها، فقد ازدادت نشاطاً وبهجة لعلمها أن لا علاقة بين جايسون وبين تلك السمراء.

ـ كان يجب أن أعرف أنك وسيط زيجات يا جايسون.

ـ أنا لست كذلك. وربما لا أحقق ما أصبو إليه بجمعهما معاً. هنا... ولكنهما مناسبين لمثل هذا الجو العائلي الهادىء.

ـ وما هو نوع الاحتفالات التي ترغب فيها عادة؟

ـ الحفلات الصاخبة... وهي لا تناسبك.

ـ ولكنك تعرف أنني قد خرجت إلى الدنيا.

ـ صحيح... ولكنك لا تخرجين دائماً إلا تحت إشراف المدام مون بلان أو المدام اويستاس أو والدة صديقتك. وأظنك بحاجة إلى المزيد من الوقت قبل أن تصبحي مؤهلة تماماً للاعتماد على النفس. كيف أصبحت لغتك الإيطالية الآن؟

أثناء الفترة المتبقية من التزلج، تحدث معها بالإيطالية، فبدا مسروراً لطلاقة لسانها. وكذلك تأثر من سرعتها في تعلم التزلج. ولكنها عندما حاولت التأثير عليه أكثر، اختل توازنها وانتهت مستلقية على ظهرها وجهاز التزلج في الهواء. فقال لها:

ـ سوف تنزلين على تقالة لو فعلت هذا ثانية.

ساعدها على الوقوف فقالت مجروحة المشاعر:

أنا آسفة... ما كان عليك الإتيان بي بل كان علي الذهاب مع الأولاد.



ـ ولكن هذين الطائشين لن يتمكنا من العناية بك، ولن يلتفتا إليك حتى وإن وقعت، وكان علي عندها أن أحضر للعناية بك.

راح يمسح الثلج عن بلدلتها براحة يده المفتوحة والمعلقة بالقفاز، ورغم هذا، ورغم ثيابها السميكة أحست بقشعريرة لمسته.

فيما بعد، وبينما كانت ترتدي ثيابها استعداداً للعشاء، أحست بأن عليها أن لا تأمل كثيراً في أن يصطحبها ثانية للتزلج... مع أنها أحست بسعادة وهما يهبطان من الجبل، حيث الأغصان المثقلة بالثلج تلمع تحت أشعة الشمس. من حين إلى آخر كانا يتوقفان. هو ليتمتع بالمنظر. وهي لتحدق في وجهه الأسمر وشعره الأسود.

ارتدت تلك الليلة ثوباً من الكريب دون سترة ووضعت سوار الأحجار الكريمة الذي أهداها إياه.

على المائدة، جلست دونيس بين السيد كلارك وصهره. في حين لعب الصبيان دور الخدم بإشراف نانسي. وبعد تقديم كل دورات الطعام. جلس الجميع إلى المائدة في أماكنهم.

ما كادت تدق الساعة الحادية عشرة حتى بدأت مراسم فتح الهدايا... ما أدهشها وأسعدها أنها وجدت أن الجميع قد قدم لها هدية وهذا يعني أنهم كانوا يعرفون بوجودها سلفاً. بعد أن فتحت الهدايا وجدت أكثر من زجاجة عطر، وأكثر من مشلح حريري، وعلبة فاخرة لمستحضرات التجميل، ومشبك شعر مرصع بالألماس، إضافة إلى أشياء أخرى تكومت قربها عند

الكرسي.

أما هديتها الثانية من جايسون، فقد كانت هدية جعلت من لم يعلم شيئاً عن هديته الأولى يعتقد أن أملها سيخيب به إذ كانت عبارة عن كتاب طبخ كلاسيكي، سُرّت كثيراً به.

كانت آخر هدية فتحت هديتها له، نظرت إليه بإمعان تراقبه بتوتر ملحوظ وهو يفتح الهدية ليكتشف رسم مائي صغير لفنان كانت تعرف أنه معجب به. وهذا الرسم رأته يوماً في أحد المعارض خلال تجوالها في بروكسل.

تقدم إلى حيث تجلس:

ـ أين وجدت هذه يا دونيس؟

ـ في معرض في شارع خلفي في بروكسل... قد لا تكون الأصلية.

ـ لا أظن هذا... لقد وضعتها ضمن إطار لتناسب مجموعتي. إن هذا ذكاء حاد. كيف تذكرت المجموعة؟

ـ لأنني أحببتها.

لطالما وقفت في صالون البخت تتفحصها... كان الرسم لا يعدو أن يكون رسماً تحضيرياً، ومع ذلك فقد كان غالي الثمن... لكنها لم تشتره بماله، بل بمالها الخاص. فقد باعت تلك القلادة الثمينة التي ورثتها عن جدتها ولكن ربما الفستان الذي ترتديه قد كلفه على الأقل نصف ثمن اللوحة.

قال لها بهدوء:

ـ شكراً لك. لست أدري متى حصلت على هدية كنت سعيداً بها كما الآن.



نظر إليها بطريقة أحست معها أنه يعني ما يقول. فتمتمت تلمس الأسوارة:

ـ وأنا كذلك.

قطعت صيحة فرح من الفتاة الأميركية الفرنسية تفكيرهما، فقد فتحت صندوقاً كبيراً قدمه لها زوجها، وجدت فيه معطفاً من الفرو لم تستطع أن تمنع نفسها من الصراخ عندما وضعته على كتفيها.

انتهت السهرة بالرقص. كان جايسون يرقص مع دونيس عندما قاطعهما دق عنيف على الباب... فقال جايسون:

ـ من يزورنا في مثل هذه الساعة يا ترى؟ اعذريني سأفتح الباب.

لحقت به... وعندما فتح الباب شاهدت دايفد.

ـ مساء الخير سيد كونر... لعلي غير طفيلي. أريد تقديم هدية ميلاد صغيرة لدونيس.

ـ لست طفيلياً إطلاقاً... تفضل وشاركنا السهرة.

ـ شكراً لك... سأدخل بعض الوقت... الليل بارد في الخارج.

عندما خلع معطفه، لاحظ وجود دونيس:

ـ ميلاد سعيد.

ـ ميلاد سعيد لك أيضاً.

ابتسمت، ولكنها قلبياً لم تكن سعيدة لرؤيته، بل تمنت أن لا يبقى طويلاً.

أحضر جايسون الشراب للشاب ثم ابتعد ليفسح له المجال



بلا عنوان

ليقدم هديته... التي كانت تمثالاً خشبياً محفوراً باليد مما تضعه عادة زوجات المزارعين السويسريين عندما رأته دونيس شعرت بالندم لأنها تمنت خروجه بسرعة.

من الواضح أن الجميع، بما فيهم جايسون، افترض أن وصول دايفد سيزيد من متعتها، ولكن حتى ولو لم يصل. ما كانت لتأمل في الحصول على جايسون رفيقاً لبراقصها بسبب اضطراره لمسايرة النساء الباقيات كونه مضيفاً لهن وكان قد راقص سامنثا مراراً، لأن بيتر انجذب إلى تانسي بشكل ملحوظ.

في الأسبوع الواقع بين الميلاد ورأس السنة وجدت نفسها في وضع حرج. فدايفد كان يلاحقها. مانعاً عنها بذلك فرص الالتقاء بجايسون أو بضيوفه. كما أن الموقف ازداد احباطاً. فسامنثا أدرك أمضت معظم وقتها مع أرمل جذاب التقته عند المصعد، يقيم في فندق المنتجع الفخم. وبما أن بيتر وتانسي وقعا في الغرام، فقد كان هذا يعني أن على جايسون الذهاب للتزلج على منحدرات مخصصة للخبراء فقط، ممضياً بقية وقته مع عائلة كلارك وعائلة هيوبرت. أما بالنسبة لدايفد، فلم يكن بإمكان دونيس المشاركة في هذه النشاطات. بل ما أزعجها أنها عندما كانت تحاول التهرب منه، كان الآخرون، بنية طيبة، يتآمرون معه ضدها.

ولكنها في الليلة الثلاثين من الشهر، أصرت بعناد على قضاء الليلتين التاليتين مع جايسون وضيوفه... فحاول دايفد أن يدفعها لتغيير رأيها... ولكنه لما اقتنع أخيراً بأنها مصممة،



طلب من جايسون الاذن لينضم إليهم فانزعجت منه ثم قالت له:

- اوه دايفد ألا تظن أنه من الفظاظة عدم قضاء ليلة رأس السنة مع اصدقائك؟

- إنهم يعرفون أنني أفضل رفقتك. لعلك لا تمانع في الانضمام إلى حفلتكم سيدي؟

نظر إليها جايسون مفكراً. فحاولت نقل رسالة إليه عبر نظراتها تقول له فيها انها لا تريد صحبة دايفد ليلة رأس السنة. ولكن وإن فهم ما أشارت إليه عيناها، فقد أجابه:

- لا مانع لدي أبداً يا دايفد.

وهذا ما كان. فعند منتصف الليلة التالية، وجدت دونيس نفسها بين ذراعي دايفد يعانقها بشكل حميم أكثر من المرات السابقة عندما كان يحاول مغازلتها وكانت تصده بشدة.

وعندما تركها وشأنها، كان أول شيء وقع عليه نظرها، في الجهة الأخرى جايسون الواقف مراقباً، ساخر النظرات... في الدقائق الخمس الأولى من السنة الجديدة قبل النساء الأخريات متمنياً لهن السعادة، ولكنه لم يقبل دونيس، فأحست بأنها منبوذة.

ما أراحها أن دايفد وشلته غادروا المنتجع في اليوم التالي، كما فعل آل هيوبرت وآل كلارك. ووجهت بيتي كلارك دعوة لدونيس لقضاء أعياد الفصح القادمة معها في باريس.

أما بيتر وسامنثا فقد دعاهما صديق سامنثا الألماني إلى العشاء كما دعا دونيس وجايسون أيضاً. بالنسبة لها كانت تلك

الليلة أسعد ليلة فالاخرون كان كل زوج منهم مشغول، وبذلك بقي على جايسون، دون أي خيار، صبّ اهتمامه عليها.

بعد العشاء كان أدولف، صديق سامنتا قد هيأ لهم نزهة على عربات جليد، معدّة كل زلاجة لشخصين.

وقال لها جايسون، وزلاجتهما، تنزلق فوق الثلج الصلب:

ـ بإمكانك البقاء حتى نهاية إجازتك، أما أنا فمضطر للسفر صباحاً. ولكنني أستطيع القول إنك ستتضايقين بسبب غياب دايفد.

فردت وهي تلف معطفها حولها بشدة:

ـ في الواقع بدأت أتضايق من وجوده... لولا مرض إحدى المشاركات في الشلة لما رأيناه كثيراً.

ـ ولكنك لم تظهري اعتراضاً على اهتمامه بك.

ـ لم أرد جرح شعوره.

ـ ما زال أمامك تعلم كيفية التخلص من المعجبين المزعجين.

ـ ولكنك لم تساعدني أنت أو الآخرون على ذلك فكلهم كان يحسبنا رفيقين.

فقال جايسون بحماس:

ـ إلا أنا. إذ لم أرَ فيه مزايا حميدة تهمني. أما رفاقه فلم أحبهم.

ـ لم أعرف أنك تعرف شيئاً عنهم.

ـ لقد سعيت إلى أن أعرف... عليك مع الوقت أن تتعلمي حسن اختيار الناس... لو حاول إشراكك في إحدى حفلاتهم



المستهترة لتدخلت. فما دمت تحت حمايتي، لن أتركك دون حماية بين أشخاص كهؤلاء المتسكعين العاطلين.

تلقت هذا الكلام بمشاعر مختلطة. فبعضها اعترض على قوله الذي أشار إلى أنها غير قادرة على العناية بنفسها، وبعضها أقرّ ما قاله. عمّت البهجة قلبها لأنها علمت أنه يراقبها أكثر مما تدرك... لكنها في هذه اللحظة خطر ببالها أن بعض الناس يعتبرون وجودها تحت حمايته أشد خطورة من تورطها مع دايفد وشلته.

صمتت دونيس، تصغي إلى أجراس الزلاجة وصوت وقع أقدام الجواد فوق الثلج وكل ما كان ينقصها لتكمل سعادتها، أن يمسك جايسون بيدها من تحت الغطاء، وأن يضمها إليه.

ولكنه لم يفعل. وفي اليوم التالي، بعد الفطور مباشرة، ترك المنتجع إلى مطار قريب حيث نقلته هليوكبتر إلى جنيف... ولم تشاهده مذ ذاك الحين إلا في إجازة عيد الفصح حيث جاء ليقضي معها ومع عائلة كلارك ليلة.

في نهاية الفصل الدراسي النهائي في المدرسة وجدت دونيس أنها لم تتحسن في أي اتجاه. وهذا يعني أن عليها قضاء سنة أخرى لتدرس في وكالة توظيف في لندن توفر موظفين مؤقتين للمكاتب. وقد قيل لها إن كفاءتها في الضرب على الآلة الكاتبة وفي الاختزال واتقانها لغات متعددة ستخولها الحصول على وظيفة ذات راتب جيد يعيلها. وهذا يعني عدم التزامها بوظيفة قد تجدها مملة، وبسرعة.

كانت مارغريت قد غادرت المدرسة قبل فصل كامل لكن

جدتها أمنت لها وظيفة في إحدى دور البيع بالمزاد العلني في لندن.

عندما آن إيجاد سكن، قدم لها جايسون شقة يملكها في لندن. واقترح إقامة الفتاتين معاً... في البدء رفضت دونيس العرض. لأنها أرادت الاستقلال التام، ولكنها لما لم تجد مكاناً آخر يعجبها، قبلت في النهاية السكن في هذا المنزل مع مارغريت.

كانت الشقة غير مفروشة، ولكن جايسون ذكرها بأنها تملك كرسيين وخزانة كتب في المخازن، فبعثها إليها. وعندما وصلت الأغراض اكتشفت أنه جدّدها. ولكن ليس إلى درجة إفساد طرازها كما يحدث عادة عندما تقع قطعة قديمة بين يدي النجار.

بعد ظهر الأحد، بينما كانت مارغريت مع طالب طب صديق لأخيها... حضر جايسون إلى الشقة فوجد دونيس تعمل على آلة خياطة استعارتها من السيدة مايلز بضعة أسابيع لتخيط الستائر وأغطية السرائر.

قدمت له الشاي مع بسكويت صنعته بنفسها... قال لها وهما يتناولان الشاي معاً:

ـ بالمناسبة... لم أرك تضعين قلادتك الذهبية مؤخراً... يجب أن تؤمن، أتعرفين هذا؟ لو أعطيتني إياها أؤمنها لك. لأنك إن قمت بهذا العمل بنفسك لتقاضوا منك أجراً عالياً أما من اتعامل معهم فلن يتقاضوا شيئاً.

غاص قلبها، فقد كانت تأمل أن لا يذكرها، فكيف تضعها



فقد باعتها.

ـ لا... أستطيع... لقد أضعتها.

ـ أضعتها؟ كيف ومتى؟ وفي أي مكان؟

ـ لو كنت أعلم لوجدتها.

أمعن النظر إليها ملياً، عابساً، فحاولت أن لا تلتقي نظراتها بنظراته. قال بعد قليل:

ـ كنت أتمكن دائماً من كشف كذب الناس... لذلك فإن كاشف الكذب لدي يقول لي أنك لست صادقة... هيا اخبريني دونيس، ماذا حدث حقاً لقلادتك؟

أدركت أنه سيحرجها إلى أن يستخلص الحقيقة منها.

ـ الحقيقة، أنني بعتها، لأشتري شيئاً آخر كنت أحتاجه.

ـ ولمن بعتها؟

ـ حقاً يا جايسون...! هل هذا من شأنك؟

ـ أظن هذا... إلي أن تبلغي الواحدة والعشرين. لقد عينت نفسي وصياً عليك. وإذا كان جوهري من الدرجة الثالثة قد خدعك، فسيجدني أمامه لأواجهه.

ـ لم أبعها إلى بائع من الدرجة الثالثة، وأنا واثقة أنني قبضت ثمناً عادلاً لها. فالقلادة لم تكن في حالة جيدة.

ـ أتصور أن معلوماتك عن المجوهرات الأثرية تساوي معلوماتك عن حل الحسابات المعقدة أي صفر. هيا قولي بكم بعتها؟

ـ يا لك من ظالم!

كانت تعرف أنه لن يتركها قبل أن تبوح بالحقيقة فما كان

منها إلا أن قالت الحقيقة على مضض... ولكن هذا لم يكن أبداً نهاية الاستجواب... فقد أراد معرفة سبب حاجتها إلى ذاك المبلغ وهي تتقاضى مصروفاً منه... عندها قاومت طلبه بشراسة، ولكنها أحست بالإرهاق أخيراً، فقالت:

ـ أردت شراء هدية لشخص... أردت شرائها بمالي الخاص.

ـ هدية لمن؟ لدايفد؟

ـ ربما... لن أقول لك. أنا أشفق على زوجتك إذا كنت تنوي الضغط عليها هكذا كلما أخفت سرّاً ما عنك.

اشتعلت عيناه مرحاً:

ـ ثمة وسائل أخرى استخدمها للاعتراف ولكنها لا تطبق عليك.

فتمتمت بعناد:

ـ حسناً... لو صلبتني بالمسامير فلن أقول لك. فلدي الحق بأن يكون لي حياة خاصة.

كان لكلماتها تأثير غريب عليه، فقد تبدلت ابتسامته ومرحه إلى غضب أسود ملتهب، أخافها. إذ امتدت يداه تمسكان بكتفيها، وهو يقول بغضب:

ـ ستخبرينني.

كان غضبه مربكاً لها ومرعباً في آن معاً... فماذا قالت له لتشعل هذه العاصفة؟ تمتمت:

ـ كانت... الهدية... لك يا جايسون، إنها... اللوحة التي أهديتك إياها في الميلاد.



لمعت عيناها بالدموع.

ـ ماذا؟ اوه... يا إلهي! لقد ظننت...

لم يكمل جملته، لأن تدفق الدموع على وجنتيها جعله يسرع إلى احتضانها واحتوائها بين ذراعيه.

ـ لا تبكي أيتها الطفلة السخيفة. فلن أضربك.

كانت هذه اللحظة لحظة عاطفية لم تشهد لها مثيلاً من قبل إلا في ذاك اليوم الذي ضمها فيه لصدره آنذاك قبالة البحار. وتذكرت... أيضاً ذاك اليوم الربيعي المنعش عندما كانت في بيت شقيقته، يومها أحس بتعاستها، وتلهفت للارتماء بين ذراعيه لتودعه ما في قلبها من مشاكل. وها هي الآن بين ذراعيه، وجهها مدفون على صدره، كما تمنت يوماً.

سألته بصوت أجش وهي ترفع وجهها الميال إليه:

ـ وماذا ظننت؟

لم يرد في البداية، بل أخرج منديلاً أبيض وجفف لها خديها من الدموع، مبقياً ذراعه الأخرى حولها... فأصرت على سؤالها:

ـ أجبني يا جايسون!

ثم تمنت لو لجمت لسانها، فقد أبعدها عنه بلطف وقال:

ـ لقد عشت بين الناس طويلاً فعرفت دوافعهم وقيمهم الأخلاقية. كما عرفت دوافعي وقيمي. وهذا ما جعلني كثير الشك بالآخرين. وحسبما أعرف، ما من أحد اضطر من قبل إلى التخلي عن شيء له قيمة عاطفية خاصة حتى يشتري لي هدية.

ـ ربما لم تكن لطيفاً مع أحد كما كنت معي.

ـ لم يكن من الصعب عليّ أن أكون لطيفاً معك. لكنني أعتقد أنه كان من الصعب عليك التخلي عن شيء وحيد كان لأمك.

ـ لقد بدوت ساخطاً. ماذا ظننت أنني فعلت؟

فجأة غدا وجهه كئيباً بشكل غريب:

ـ لقد بدوت لي محتالة، ومثل هذا الانطباع الخاطىء قد يكون خطراً. فقد خطر ببالي أنك قد تركت عواطفك تسوقك إلى شاب تظنينه أذكى منك. وهذا وضع يبقي بعض العيادات الخاصة في شغل دائم هذه الأيام.

ـ ولماذا غضبت؟ أنت لست بالمتزمت الضيق الأفق مثلما كان جدي.

قال بسخرية:

ـ بل بعيد جداً عن هذا، ولكنه لا يعني أنني اعتقد أن مقاييس هذه الأيام هي تقدماً. ولا أظنك من الطراز الذي يقبل بعلاقة عابرة... بسهولة.

في هذه اللحظات وصلت مارغريت فقاطعتهما... في هذا الوقت تيقنت دونيس من أنها لن تستطيع بعد الآن اقناع نفسها بأن مشاعرها نحوه هي مشاعر عابرة... فهو لا شك... حب حياتها الوحيد، وسيبقى دوماً.

قبل بضعة أسابيع من موعد عيد ميلادها الحادي والعشرين اتصل بها جايسون في المكتب الذي تعمل فيه، طالباً منها العشاء معه في شقته. وهناك قال لها بما أنه لا يريد أن يظهر



ضيفاً لها في عيدها، فقد رتب أمر إقامتها في منزل عائلة كلارك في باريس.

وتابع:

ـ اكتبي لائحة باسماء المدعوين الانكليز الذين تريدين حضورهم، وسأحجز طائرة لنقلهم ذهاباً وإياباً. وإذا تعجب أحدهم قولي بصدق ان جايسون هو صديق للعائلة، مع أنني في الواقع عائلتك الوحيدة.

ـ ليس لدي من أرغب في أن يكون معي عدا مارغريت، وهي تلقت دعوة في ذلك الأسبوع من شخص مميز لقضاء نهاية الأسبوع مع أهله... لذلك أرجو أن لا تتذكر هذه المناسبة.

ـ في هذه الحالة، لماذا لا تأخذين إجازة مدة أسبوعين تذهبين خلالهما إلى باريس حيث سأكون هناك... فلنقل في نهاية الأسبوع القادم؟ وقبل ذلك تختارين ثوباً من إحدى دور الأزياء. أريد أن أفخر بك وإن لم يكن علناً.

وصلت دونيس مبكرة لتجرّب للمرة الأخيرة الثوب الذي سترتديه في حفلتها فجلست تقرأ مجلة، وإذ بها تسمع شخصاً يتكلم بالفرنسية:

ـ ألا أعرفك؟

رفعت نظرها فوجدت نفسها تحت مراقبة عينين جميلتين، تعرفت على صاحبتهما فوراً... ففقزت صائحة:

ـ مدام دوفال؟ أجل، لقد التقينا عندما كنت تلميذة في «شاتو شارمين»... لقد أتيت يومها مع جايسون، وأخذتماني لتناول الغداء. تذكرين؟

ـ اه... أجل... هذا صحيح. أذكرك الآن. ولكنك تغيرت كثيراً منذ ذلك اليوم. يومها كنت تعدين بامرأة جميلة، أما الآن فأنت الجمال عينه.

ـ هذا اطراء كثير من امرأة لها مثل هذا الجمال الباهر.

جلست كلير على المقعد المخملي حيث كانت دونيس تنتظر. قالت:

ـ للأسف... جمالي اليوم يعود الفضل فيه إلى كل ما هو مصطنع، لقد أجريت مؤخراً عملية لشد بشرة الوجه... وجدت بعدها شاباً فاتناً وقع في حبي، لم يعرف أنني أكبر سناً مما أبدو. لا أدري حتام ستستمر علاقتنا؟ أخبريني كيف حال جايسون؟ لم أره منذ ستة أشهر أهو بخير؟

ـ أجل... إنه بخير... سيأتي ليأخذني من هنا بعد نصف ساعة... جئت أجرّب فستان عيد ميلادي الحادي والعشرين.

ـ هكذا إذن... ربما سأنتظر لتحيته... أنت تعلمين لا شك، أن هناك أوقاتاً كنا فيها... مقربين.

ـ لقد اعتقدت ذلك.

استدعيت دونيس للقياس، فطلبت من كلير مرافقتها... جلست الممثلة بصمت تراقب الفستان ينسدل من فوق رأس دونيس ثم يتهادى على جسدها الرشيق. وعندما بدأت العاملة بوضع لمسات التصليح على الفستان قالت كلير:

ـ وماذا عن حياتك يا عزيزتي؟ هل فيها شاب ما أم أن قلبك لا يزال خالياً؟

ـ ليس هناك من أحد في الوقت الحاضر.



كالعادة وصل جايسون في الوقت المحدد تماماً. قبّل يد كلير احتراماً. واقترح انتقالهم إلى فندق كبير لتناول العشاء معاً. فقالت كلير:

ـ لدي اقتراح أفضل... تعالوا معي لمشاهدة شقتي الجديدة هي ليست بعيدة من هنا، وأنا واثقة أن الديكور فيها سيعجب دونيس.

قهزت دونيس رأسها:

ـ سأحب رؤيتها... هل لدينا وقت يا جايسون؟

ـ بكل تأكيد.

كان جايسون قد قدم بسيارة أجرة، بينما كانت سيارة كلير بانتظارها، فجلست في منتصف المقعد الخلفي والآخران إلى جانبيها. نظرت دونيس إلى وجه جايسون وهو يصغي إلى الممثلة تتحدث عن فيلم ستقوم بتمثيله قريباً. نظر إليها مرة أو مرتين، ولكنه في معظم الوقت حط بصره إلى الأمام وكأن جمال كلير لم يعد يجذبه.

أحست بألم مفاجئ، لتفكيرها بشاعة أن تستطيع امرأة الشعال رغبته، ثم تضطر إلى أن ترى بعينيها انطفاء تلك الشعلة... عندما وصلت بهم السيارة إلى شقة كلير، اقترحت على دونيس أن تتجول بينما تتحدث مع جايسون في غرفة الجلوس.

عندما عادت للانضمام إليهما، كانا يجلسان في مقعدين متقابلين ووقف جايسون عند دخول دونيس. بعد أقل من عشر دقائق، وقف ثانية ليودع كلير. وباندفاع لم تفسر سببه، قالت

دونيس:

ـ ربما ترغب مدام دوفال في حضور حفلتي يا جايسون.

ـ أجل... تعالي يا كلير. إذا كنت حرة تلك الليلة.

ذكر لها الموعد، فراجعت دفتر مواعيدها، ثم قالت انها ستسرّ بالحضور.

ليلة الحفلة، عندما نزلت لتنضم إلى أهل المنزل قبل وصول الضيوف، كان يهمها ردة فعل واحدة لشخص محدّد مميز لها. كان الجميع بين جالس وواقف في مجموعات قرب أرائك طويلة تقع على جانبي المدفأة.

ما إن دخلت الصالون حتى صاحت بيتي كلارك بذهول:

ـ دونيس... يا عزيزتي!

صيحتها دعت الجميع إلى الصمت، والالتفات والتحديق إليها إعجاباً بالجسم المتوقف بتردد عند الأبواب المزدوجة. علمت دونيس دون أن تنظر أين يقف جايسون. ولكن أنظارها طافت باتجاه كل الموجودين قبل أن تستقر على وجهه.

تقدم نحوها وعيناه الباردتان تمعنان النظر في كل تفاصيل مظهرها أما هي فبينما كانت تنظر إليه بإعجاب فوجئت لرؤيتها لمعاناً مفاجئاً لرغبة اشتعلت في عينيه، رغبة تذكرت لها مثيلاً منذ سنين. تركزت عيناه على شفتيها، وعلى ياقة فستانها حيث تدلى العقد اللؤلؤي الذي أهداها إياه بمناسبة عيد مولدها، وأخيراً عاد إلى فمها الملون بلون أحمر قانٍ يلائم لون باقة الورد المثبتة على خصرها، ولون حذائها.

لم يقل شيئاً... بل أخذ يدها ولامس أصابعها بفمه. عيناه



الرماديتان ترسلان رسالة جعلت الدفء يرسل ألوانه الحمراء إلى خديها...

تمتمت له، وهي تلامس اللآلىء باصابعها:

ـ شكراً لك هديتك.

ـ قد لا تجد اللآلىء دوماً مكاناً رائعاً تظهر فيه كما هو الحال معها الآن.

دون أن يتمكن الآخرون الواقفون خلفه من رؤيته، راحت عيناه تحدجان ثناياها الرقيقة بنظرة حميمة وتّرت لها أعصابها أكثر مما كان سيحدث إن لامسها.

كانت تزداد احمراراً، وقلبها يتضاعف تراكضه، وهو لا يزال يمسك بيدها، ثم رافقها ليقودها بين المدعوين. غير عابىء بأن يخفي هذه النظرة المشتعلة في عينيه تجاهها.

تذكرت يوم رافقها لتحضر أغراضها من كوخها القديم في الجزيرة، وبعد أن عانقها أنه قال لها: «لا تقلقي! لست أنوي تكرار هذا... أو على الأقل ليس قبل أن تصبحي أنضج».

يبدو، الآن، ان الوقت قد حان... هي تعلم أنه قبل أن تمر ساعة على بدء الحفلة سيعانقها من جديد، لكن ليس برقة كما في المرة الماضية.

كان قد ترك للآخرين فرصة مراقصتها على الأنغام الموسيقية. ولكنه طلبها لنفسه عندما أصبحت الموسيقى ناعمة وبطيئة، كي يضمها إليه، ذراعه ملتفة بشدة حولها لئلا تحاول الابتعاد... بعد محاولات خائبة لابقاء مسافة بين جسديهما استسلمت لضغط ذراعه.

لم يكن سعيها لتجنب لمسته سببها الكره... بل الخوف من أن تعجز عن الإخفاء عنه، أو عن أي شخص قد يراقبها، دلائل الانفعالات التي تحس بها وهي مأسورة بين ذراعه اليمنى القوية، وبين جسده القاسي الذي راح يذيب نعومة جسدها. كانت عند كل استدارة في الرقص تحس بعضلاته تتوتر.

ـ أحب رائحة عطرك... ما اسمه؟ (همس لها).

ـ «الغموض» من «روشا».

ـ ومَن مِن معجبيك يراك امرأة غامضة؟

ـ لا أحد... إنها هدية من مارغريت... وعلى ذكر الهدايا... لا أظن أنك مضطر لاهدائي مثل هذه الهدية الغالية الثمن في عيد مولدي... اللآلىء رائعة ولكن...

ـ ولكنك قد تتساءلين عما إذا كنت مأقيدك بها، أليس كذلك؟

نظرت بسرعة إلى الوجه الأسمر الذي يعلو وجهها، فوجدته ينظر إليها نظرة حيرتها. سارعت تقول:

ـ لا... لا... بالطبع لا!

ـ ولكنك محقة، هناك بعض القيود.

خفق قلبها بقوة، علمت أنه شعر به:

ـ ما... ماذا تعني؟

ـ كما افترضت بالضبط... ما من رجل يهدي الجواهر إلى امرأة ليس مرتبطاً بها دون أن يكون له هدف، من نوع آخر. ولكن ليس هذا المكان أو الزمان المناسبين لنقاش مسألة كهذه... ألا تظنين هذا؟ ربما فيما بعد او مي "غد" إذ يبدو أن



حفلتك ستستمر حتى الفجر.

توقفت الموسيقى، فأرخى قبضته عن جسدها، ولكنه أمسكها بيد بينما تسللت اليد الأخرى إلى القرط اللؤلؤي ثم لم تلبث أنامله أن راحت تداعب التجويف الدافىء خلف أذنها... كانت مداعبة قصيرة سريعة ربما لم يلاحظها أحد، ولكن كان تأثيرها على دوتيس ذاك التأثير الذي كان سيكون إن لامس العقد المتدلي في الياقة المنخفضة. لم تفكر قط أن المنطقة خلف أذنها قد تكون حساسة هكذا، أو أن البشرة هناك قد تكون سريعة الاستجابة تجاه المداعبة.

حان وقت الدخول إلى قاعة الطعام، حيث حضّرت بيتي كلارك مائدة غنية بالمآكل والمشارب. وهنا افترقا مما أعطاها فرصة لالتقاط أنفاسها من تأثير سحره، ووقتاً للعود على فكرة أنها الآن قد أصبحت في سن النضوج، ولم تعد فتاة ساذجة في الثامنة عشرة من عمرها بل امرأة توشك على أن تصبح الفتاة الثانية على لائحة نسائه.

علمت أن جايسون لو أصرّ على أن يأخذها إلى فراشه، فلن يمنعه سوى شيء واحد، هو أن تهرب منه، وهذا يعني أن تقطع خيط عيشها في لندن، وأن تترك شقته، والأصدقاء الذين صادقتهم، وستضطر إلى البداية من جديد في مكان آخر، مكان لا يستطيع أن يجدها فيه. أما البديل، فهو البقاء ومشاركته حياته المدة التي يرغب فيها.

في الواقع، لماذا لا؟ ولكن صوت العقل صمت أمام صوت الأحاسيس التي تصاعدت فيها، تلك الأحاسيس التي كانت

## ٥ ـ تخرج من حياته

سألته الممثلة:

ـ وهل وقعت في حبها؟

كانت دونيس وهي في مكانها المسيج بأغصان الشجرة، تحبس أنفاسها.

ـ بحسب اعتقادي أن الحب هو أساس ضعيف للزواج... وأعتقد أنني أخبرتك مرة عن الظروف التي جعلت دونيس تحت وصايتي.

ـ أجل، لقد فعلت.

ـ وحدها فتاة لها شجاعة نادرة وقوة تحمل فائقة تقدر على النجاة من ذلك المأزق.. وأنا أريد هذه الشجاعة، وذلك الحزم الذي لا يقهر، ليكون في أولادي. وهي إلى ذلك جميلة... ولكن حتى وإن كانت غير جميلة فإن مزاياها الأخرى ستكون كافية لي. فالجمال أمر أساسي في عشيقة، ولكنه أقل أهمية في زوجة. فأنا أريد لزواجي أن يدوم... إذ لن أطلقها يوماً.

ـ أنت واثق جداً من موافقتها يا صديقي.

ـ ولماذا ترفض؟ استطيع أن أوفر لها كل ما تريده المرأة. وقع عدة شبان في حبها، ولكن ما من أحد منهم أثار فيها أكثر



من مشاعر عادية.

ـ ألم يتبادر إليك أنها واقعة في حبك؟ لن يدهشني هذا. فأنت شيطان جذاب، وهي مدينة لك بحياتها وبكل ما تملك.

ـ إذا كانت تحبني فهذا أفضل.

ـ آه... هنا يبدأ خطأك في معرفة نفسية الأنثى... فإن كانت تحبك فستطالب بحبك في المقابل. بالنسبة لأغلبية النساء الرجل هو في أولى اهتماماتهن وله، إذا دعت الضرورة، قد يضحين بكل شيء... ربما فيك كل صفات الحبيب، ولكنني أشك في أن يكون لك صفات الزوج... فالمطلوب من الزوج، الوفاء، اللطف والحب، الصداقة والعاطفة... فهل ستعطيها كل هذا «مون شيري»؟

جاءها رد قاطع جاف:

ـ لديك ما يكفيك من مشاكل فلا تهتمي بمشاكلي يا كلير، هيا فلنعد إلى المنزل.

سمعت دونيس ضحكة المرأة وهي تبتعد مع جايسون... بقيت لبعض الوقت حيث هي، لا تكاد تصدق ما سمعته... فهل سيطلب منها الليلة أن تتزوجه؟ وإذا فعل، فبمَ يجب أن ترد عليه؟ أتقول نعم؟ صاح قلبها المتلهف: نعم! ولكن إذا أصبحت السيدة كونر، فهل ستقدم لها الحياة الكفاية التامة؟ ولكن... إذا كان لا يحبها...

عادت إلى قاعة الرقص، ممزقة بين الترقب والإرباك. ولكن ما أن ظهرت حتى سارع شاب يطلبها للرقص، وبقيت طوال السهرة ترقص مع كل الرجال إلا مع من تتوق إلى

مكبوتة من قبل والتي باتت تطالب بإسكات ذاك الجوع الذي أحست به.

لكن أية علاقة غرامية تدخلها معه، لن تدوم إلا قليلاً. لعل هذا طبيعي لأي رجل يحصل على كل النساء اللواتي يرغب فيهن أو لا يكتفي بامرأة واحدة. ولماذا يكتفي بواحدة والثمار الناضجة في متناول يده؟

هتف بها صوت العقل: قد أبيع روحي كي أجعله يحبني مدى الحياة... ولكن لن أضحي باحترامي لنفسي لأجل فترة وجيزة من السعادة الخادعة.

كانت كلير قد قدّمت لها هدية في علبة بيضاوية كتبت عليها «السعادة هي التي تجعلك تشعرين بأن الحاضر هو أفضل وقت في السنة».

أحست فجأة أن كلير توجه لها كلاماً لم تسمعه لاستغراقها في التفكير وانصباب نظراتها على جايسون. كان تفكيرها غارقاً في البحث عن رد للسؤال الذي تتوقع منه أن يسألها إياه. فسارعت للرد:

ـ آسفة... ماذا قلتِ؟

لاحظت دونيس أن الممثلة علمت أنها وقعت في حب جايسون. فتملكتها فكرة مجنونة تدفعها إلى أن تختلق عذراً لتختلي بها طالبة منها النصيحة. ولكنها أسرعت تعرض العلبة التي أهدتها لها كلير على جايسون. فأبدى إعجابه بها وقال:

ـ هل أضعها في جيبي لك؟

ـ شكراً لك.



فوضعها في جيب سترته الداخلي وطلب من كلير مرافقته، بينما طلب صديق الممثلة مرافقة دونيس.

عند الواحدة بعد منتصف الليل، أحست دونيس بالتعب فتسللت إلى الحديقة طلباً للراحة متجنبة لقاء أي من المدعوين الذين كانوا يتمشون هناك. سارعت إلى الجلوس على مقعد من الخشب تحت ظل شجرة وارفة أبعدتها عن الأنظار.

من الغريب أن تكون تصرفات جايسون قد تغيرت نحوها. أحست بأنه كان صادقاً معها يوم اكتشف سبب بيعها للقلادة... وكذلك يوم قال لها انها لم تخلق كي تأخذ الحب بخفة... كما يفعل هو.

همهمة أصوات مقتربة جذبتها من تفكيرها... وسرعان ما تعرفت على الصوت النسائي الأجش لكلير. ظنتها مع صديقها الجديد. ولكنها لم تكن تتحدث معه، وقد بان لها ذلك بعد لحظات عندما وقفا على خطوة من مكان جلوسها تحت الشجرة.

ـ أخبرني يا جايسون... ما هي خططك بالنسبة لوصيتك الصغيرة الفاتنة؟ عندما رأيتك للمرة الأولى معها وعندما رأيتك منذ أيام معها لم يبد أنك تلاحظ جمالها أما الليلة فرأيت في عينيك تلك النظرة التي تشتعل عندما ينظر رجل إلى امرأة تجذبه.

جاء رد جايسون المحطم لأعصاب دونيس:

ـ الآن وقد أصبحت في سن قانوني. واكتسبت خبرة في الحياة... أنوي الزواج منها يا كلير...

• • •

ذراعيه.

عند الرابعة صباحاً كانت دونيس تخلع فستانها. وتهم بالدخول إلى الحمام لا يستر جسدها سوى الجوارب البيضاء، لتزيل زينتها عن وجهها وتنظف أسنانها.

عندما عادت إلى غرفة النوم أجفلت لمرأى جايسون يقف قرب طاولة الزينة، في البداية كان ظهره لها، ولكن شهقتها جعلته يستدير.

ـ لقد قرعت الباب، وعندما لم أسمع الرد، افترضت أنك تستحمين، فدخلت لأرد لك العلبة التي أهدتها لك كلير.

ـ اوه... ألهمك... شكراً لك.

كانت شبه عارية، فترددت، غير واثقة ما إذا كان عليها التراجع إلى الحمام، أم أخذ الروب عن السرير. راحت عيناه تدوران فوق قوامها النحيل. لكنه لم يلبث أن أعطاها ظهره قائلاً:

ـ إذا لم تكوني متعبة، فدعينا نتحدث قليلاً. هل تريدين انهاء خلع ملابسك؟

تحركت دونيس إلى السرير، فخلعت بسرعة الجورب ولما شرعت بارتداء ثوب النوم، نظرت إليه فلاحظت أن جايسون كان ينظر إليها عبر المرآة المثلثة التي أمامه، وهي تظهرها من ثلاثة زوايا مختلفة.

أكملت بسرعة ارتداء فستان النوم ثم ارتدت الروب فوقه. وقالت بصوت يرتجف:

ـ لك أن تستدير الآن.



فاستدار وتقدم ببطء نحوها.

ـ تمتعت بحفلتك كما أرجو؟

ـ أجل... شكراً لك.

ـ وهل انزعجت لأنني رأيتك شبه عارية؟ ولكن فتاة لها جمال كجمالك لن تحتاج إلى الاحتشام.

همست:

ـ وهل أنا جميلة يا جايسون؟

أصبح قربها الآن. عيناه تلمعان فضولاً وصوته يهمس:

ـ بل أكثر من جميلة، أود البقاء معك. أتحبين هذا؟

رمشت عيناها... ماذا ينتظر منها أن تجيب؟ لعله يتوقع منها رفض الزواج إذا سألها، معتقداً أنها تختلف عن كل النساء اللواتي يرمين بأنفسهن بسهولة عليه... ولكنها في الواقع كانت تريد يأس أن تستكشف ذلك الغموض الذي تحس به النساء بين ذراعي من يحببن... ولكن ليس مع أي رجل... بل معه.

ارتجفت كلمة «نعم» على شفتيها، ولكنها لم تخرج إطلاقاً. فقد أخذ عنقها بين يديه وقال:

ـ ألم يجعلك كل اولئك الشبان، دايفد، أليكس والآخرون... ترغبين في أكثر من قبلة وداع؟

بينما كان يتكلم كانت أصابعه تداعب مؤخرة عنقها في حين شرع ابهامه بالمرور بلطف فوق خدها... فهزت رأسها قليلاً:

ـ لا... فأنا لم أحب أياً منهم مطلقاً.

فضاقت عيناه وقال ساخراً:

ـ وتظنين أن ما من سعادة دون حب؟

أشارت برأسها نفياً... فتابع:

ـ ولكن هذا لا يدل على تقصيرهم معك. اغمضي عينيك قليلاً.

أطاعته، تتساءل عما إذا كان سيقبلها، كانت تتوق إلى قبلته تلك ولكن في الوقت نفسه تخشاها لأنها تعلم أنه إن قبلها، فلن تتمكن بعدها من التفكير السوي... وهي تريد اتخاذ قرارها دون أن يكون لأحاسيسها أثراً فيه.

لكنه لم يقبلها... بل راح يداعب مؤخرة عنقها بقوة أكثر، رغم إحساسها بقساوة أصابعه، ذهلت الآن لنعومتها. وكأنما كان يقرأ أفكارها... فقال بصوت منخفض:

ـ ما زلت لا تعرفين إلا القليل... اللذة الحسية لا تعتمد على حالة ذهنية معينة. قد تظنين نفسك تحبين شخصاً، ولكنك إن لم تكوني حذقة فقد لا تتمتعين بالقدر الكافي من السعادة معه. ولكن رجلاً له خبرة مع النساء قد يدفعك للرغبة فيه بيأس كما رغبت في ذاك اليوم الذي غرقت فيه في تلك الجزيرة في الحصول على أي شيء تأكلينه.

فتحت عينيها بحدة، وأمسكت بمعصميه ثم انتزعت يديه عن وجهها... وقالت بصوت متوتر صارم:

ـ تقصد رجلاً مثلك... ولكن بكلمات أخرى اسأل... ألم تظهر لك أي امرأة عدم اكتراثها بك يا جايسون؟

ـ لا لم يحدث ذلك من امرأة أريدها.

فصاحت بسخط:

ـ اوه! إذن أظن أن الوقت قد حان لتظهر إحداهن لك هذا.



فلا ينفع الإنسان الحصول دائماً على ما يريد.

ـ وربما لا. هل ستكونين أولى من ستوقفني عند حدي؟

التفتت إليه لتواجهه ثانية، فرأت في عينيه ما يشير إلى أنه على يقين من أنه قادر على الحصول عليها متى شاء... لولا سماعها حواره مع كلير لدفعتها كبرياؤها إلى القول «أجل سأكون الأولى»... ولكنها تجاهلت كل هذا وسألته:

ـ ولكنك لم تطلب مني شيئاً لأوقفك عند حدك.

ـ لو كنت امرأة لها الخبرة لما طلبت منك... ولكنت أخذت ما أريد. ولكن العذراء غير المجربة بحاجة لمعاملة لطيفة. وبما أن الصباح يوشك على البزوغ أقول: ارتاحي الآن. وتناولي غداءك في السرير. سأراك بعد سبع ساعات... وإلى ذلك الوقت...

أرسل لها قبلة في الهواء. وخرج، تاركاً إياها في شك محير: أكان يريد مشاركتها الفراش الليلة؟ أم أنه يريد ذلك في الليلة القادمة؟

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف النهار عندما استيقظت... ولكن ما أذهلها أنها استطاعت النوم بسرعة ليلة البارحة. رغم التأزم العاطفي الذي تركها تتخبط فيه جايسون.

قبل الواحدة بقليل، انفتح باب غرفتها ودخلت إحدى الخادمات. تقول ان تعليماتها تنص أن لا تزعجها إن كانت نائمة، وعلى أن توصل إليها طعاماً خفيفاً إذا كانت صاحية.

على صينية الغداء، كان هناك رسالة لها تقول إن عليها ملاقاته عند الرابعة بعد الظهر في مقهى معروف، لم تكن تحلم

أن يكون الموقع المناسب لطلب زواج. من سخرية القدر أن تكون قد رفضت العديد من طلبات الزواج بحجة أنها لم تكن تحب التقدم. وها هي الآن سترفض الرجل الذي تحبه لأنه لا يحبها.

بعد الغداء استلقت في حمام ساخن ربع ساعة. ثم عادت إلى غرفتها تلف جسدها بمنشفة كبيرة. زينت عينيها، وكانت على وشك تحديد خطوط زينة شفتيها عندما سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. كانت تتوقع رؤية بيتي فنادت «ادخل» لكنها ذهلت حينما رأت جايسون أمامها. فقالت:

ـ ظننت أننا سنلتقي عند الرابعة؟

ـ لسوء الحظ حدث شيء ما. وعلي السفر فوراً إلى لندن. ولكن قبل هذا يجب أن أكلمك.

كان مقعد طاولة الزينة عريضاً يتسع لاثنين، فأشار إليها لتفسح له مكاناً، فجلس معطياً ظهره إلى طاولة الزينة، ووجهه إلى ناحية، ووجهها إلى ناحية أخرى...

ـ ليلة أمس كنت أتسلى بازعاجك بمزاحي قليلاً... ولكنني في الواقع أريدك أن تتزوجيني. فهل ستسمحين لي بمتابعة العناية بك دونيس؟

كانت تترقب طلبه هذا ومع ذلك تأثرت بالطريقة التي عبر فيها عن طلبه. فسألته:

ـ لماذا يا جايسون؟ لماذا؟

ـ لأنك جميلة... شجاعة. لأنك أول امرأة أحس باللهفة لانجاب أولاد منها. لأن لك كل الصفات التي تعجبني في بنات



جنسك. ولا أجد العيوب التي تثير غضبي.

ـ هل يعني هذا أنك تحبني؟

ـ بل أنا أكثر دقة. فما أقوله انني معجب بتفكيرك وأرغب في جسدك. وان عندي الثقة الكاملة بأننا سنتمكن من العيش معاً بتناغم. حيث سننجب أولاداً أقوياء وأذكياء.

راحت تبحث في وجهه عن أي مشاعر خاصة قد تراها فيه ولا تحسها بكلماته. ولكنها لم تجد شيئاً يعطيها بارقة أمل توحي إليها بأنه سيحبها يوماً كما تحبه هي الآن بقوة عاصفة. فعيناه الرماديتان كانتا هادئتين، وتصرفاته تصرفات رجل يعقد صفقة تجارة لا طلب زواج.

فلعقت شفتيها، وابتلعت ريقها:

ـ إذاً... لو أنني قبلت بعرضك... فهل ستستمر على علاقة بالنساء الأخريات؟

ـ لا... لن أفعل. لا شك أن ماضي كان سيئاً. فمن غير الطبيعي أن لا تكون لرجل غير متزوج علاقات غرامية. ولكن مهما قيل عني فأنا لست ذلك الرجل غير الطبيعي... ولن يكون لزوجتي أي سبب لتغار ما دامت هي معي دافئة ومتجاوبة.

فكرت لحظات، ثم قالت:

ـ أنا آسفة يا جايسون... وأنا شاكرة لك عنايتك بي... بل أجدني عاجزة عن رد جميلك... وسأشعر دائماً... باللطف نحوك. ولكنني أريد الزواج لأجل الحب. لا لأسباب واقعية عملية كالتي قلتها.

ـ إن علي أن أجعلك تحبينني.

ـ لا يمكنك جعل أي كان يحبك... إنه شعور عفوي تلقائي.

ـ هل أنت واثقة؟

نظرت إليه، فمد يده ليفتح روبها وليضع يده فوق قلبها.

ـ إذا كنت لا تشعرين بالحب تجاهي، فلماذا يخفق قلبك بسرعة؟

ـ أنا... لست أدري.

سخرت عيناه من ارتباكها:

ـ بل أظنك تدرين يا فتاتي.

ـ ما... ماذا تعني؟

ـ ربما لا تحبينني، حسب مواصفات الحب الذي تؤمنين به ولكنني أظن أنك تواقة إلى أن أعلمك إياه.

ـ لا... أرجوك... يجب أن لا تفعل... فأنا لست...

أمسكت بيده بقوة تحاول منعه من انتزاع قدرتها على التفكير. فسألها:

ـ ولماذا لا؟ إذا كنت أريد أن أعلمك وأنت ترغبين في التعلم؟

ـ ولكنني لا أرغب... لا أرغب!

ـ ألا ترغبين... ليتك صادقة مع نفسك؟

وضع يده حولها ورفع باليد الأخرى وجهها إليه... ثم راح ينظر إليها نظرات عميقة جعلتها تعجز عن الكذب، فقالت هامسة:



ـ ربما... أنا لست واثقة...

ـ ستكونين واثقة... بعد شهر، أعدك بأنك ستكونين واثقة، عندها سنعلن خطوبتنا. وبعد شهر نتزوج. أما الآن فأنا مضطر لتركك كارهاً.

شدها إليه معانقاً... فأرسل تلامسهما شعلات من إثارة مجنونة اجتاحت كل اعصابها. وعندما تركها قال ساخراً:

ـ هذه تجربة. أما غداً فستتقدم خطوة أخرى، وداعاً دونيس.

راقبته يعود أدراجه دون أن يلتفت إليها... ما هي إلا لحظات حتى أصبحت وحدها ثانية، خافقة القلب، مشوشة التفكير.

بعدما قاله وما فعله، بات من المستحيل أن تركز على زينتها فأغمضت عينيها، تتذكر يده وهي تجوب جسدها، وحرارة جسده وهي تذيب كيانها أدركت أن ما قاله صحيح... فهي تريده حقاً. إن تجربتها معه ستكون نعمة، وليس كتلك الخيبة التي تعاني منها بقية الفتيات على يد شبان لا خبرة لهم.

فكرت فيما قصده بقوله «غداً ستتقدم خطوة أخرى» ليتها كانت تملك شجاعة تدفعها إلى أن تطوق عنقه لتبقيه معها فترة أطول ليعلمها المزيد المزيد... ولكن بينما كان جسدها يرتجف من السعادة، كان عقلها يتمرد ضد تأكيداته غير المبالية بالحب... إنه لا يحبها، ولا يطلب منها أن تحبه. ولكنه يجدها، كما هو ظاهر، مرغوبة جسدياً، ويرى فيها مزايا محددة يريد أن يورثها إلى ابنائه... لقد لاحظت بكل وضوح، أن دور

المرأة الأساسي في نظره، ليس دور الصديقة والشريكة، بل شريكة الفراش والأمومة. ولولا رغبته في الأطفال، الذكور منهم خاصة، لما تزوج أبداً.

لم يحتج إلى شهر لإقناعها بالزواج، بل حقق هذا في اسبوعين. فمنذ عاد من لندن، خصص لها كل وقته. فعاملها برقة متناهية ليست عند أي رجل في الدنيا. كان في كل يوم يبعث لها على صينية الفطور مفاجأة ما، أحياناً غالية الثمن وأحياناً لا، ولكنها ساحرة دائماً. وكان دائماً رغم عودتها متأخرة إلى المنزل يترك لها مذكرة صغيرة يقول فيها انه ينتظرها بعد ساعة، للخروج إلى النزهة.

غالباً ما كان يجلسان على مقهى رصيف، فيجعلها تضحك إما على تعليقاته الحارة أو على نكتة جريئة. وفي أحياناً كثيرة كان يقرب منها الكرسي ثم يشرع في إمعان النظر فيها وكأنه يمعن النظر في قطعة أثرية نادرة. وجدت مثل هذه التحديقات لا تطاق. إذ كانت تحاول قدر الإمكان السيطرة على نفسها، ولكن وجنتيها كانتا تصطبغان بحمرة الخجل، عندما تقوم عيناه، ودون مجال للخطأ بإرسال رسالة ما.

في إحدى الليالي بعد أن تناولا العشاء برفقة مضيفيهما في الخارج، جلس الجميع لتناول الشراب الساخن قبل النوم، ثم استأذنهما مضيفيهما للذهاب إلى النوم، وتركاهما في غرفة جلوس صغيرة دافئة.

لم يمض على وجودهما وحيدين خمس دقائق، حتى فاجأها جايسون بتركه كرسيه متوجهاً إلى الأبواب ليقفلها وليعود



بعد ذلك وقد فك ربطة عنقه وزر ياقته. لمّا أصبح على مقربة منها مد يده إليها فتركته يجذبها إلى ذراعيه ومن ثمّ حملها إلى أريكة طويلة ذات مساند من ريش.

أنزلها على الأريكة، وجلس على حافتها، ثم نظر إليها للحظات مبتسماً، نظرة ذكرتها بتلك النظرة التي رمقها بها يوم استعادت عافيتها... ثم تنس تلك النظرة قط أو تلك الطريقة التي جعلتها تظن أنها جارية. يتفحصها من يريد شراءها ليقيمها. وها هي الآن تشعر بذاك الإحساس نفسه... ولكنها الآن تحس بأنها أصبحت ملكاً له... وأنه على وشك أن يأخذ منها ما يساوي ما دفع.

ثم أصبحت أسيرة ذراعيه، فراح يشدها بعنف، مما جعلها تحس بأن موجة أطاحت بها وأخذت تتقاذف فيها يميناً وشمالاً حيث لا مفرّ إلا في الاستسلام لقدرها. وكان في تجاوبها أكثر من استسلام... فقد تحرك كل عصب في جسدها، دافعاً إياها إلى أن تطوق عنقه بيأس... وكان ما يحدث بينهما هو ما تريده شدة ولهفة فقد أرادت أن يتفوق عليها، وأن يجبرها.

ولم يكن ما يجري فوق الأريكة كله قوة وغزو... بل لطف ورقة، كانت اصابعه الدافئة تلامسها كما الريش... دون أن يحاول مطلقاً إزاحة أي من ثيابها عنها، ولكن يداه أخذتا تجوبان جسدها فوق القماش الحريري، إلى أن كادت تفقد وعيها من رقته ولطفه.

عند هذه اللحظة بالذات، وقد اكتشفت معنى الحب الحقيقي همس لها في أذنها:

ـ أيمكنك الآن أن تقولي انك لا تحبينني؟

ففتحت عينيها وقالت دون تردد:

ـ اوه يا حبيبي بلى... أنا أحبك.

فأخرج من جيبه علبة مجوهرات فتحها وأمسك بخاتم:

ـ هل لي أن أضع هذا في اصبعك الآن؟

كان الخاتم مشعاً كنار خضراء يفعل تلك الزمردة المربعة الشكل المرصعة بالألماس والمطوقة بإطار ذهبي. فشهقت:

ـ جايسون.

دسه في اصبعها، وقبل يدها:

ـ لا أظن أن مضيفينا نائما بعد. قلت لهما ان بإمكانهما تهنئتنا قبل انقضاء هذه الليلة... فهل استدعيهما لمشاركتنا الاحتفال؟

ودون أن ينتظر الرد وقف، وفتح الأبواب، ثم استخدم الهاتف الداخلي فصاحت به:

ـ اوه... اعطني لحظات لالتقط أنفاسي... شعري... فستاني! كيف أبدو؟

قفزت واقفة، وأسرعت إلى المرآة تنظر إلى مظهرها، فابتسم قائلاً:

ـ تبدين كحواء بعد أن قضمت التفاحة.

ثم قال في الهاتف:

ـ بيتي؟ أنا سعيد بأن أقول لك ان دونيس وافقت على الزواج مني. فهل تنضمان لنا للاحتفال؟

تقدم نحوها وهي راقعة ذراعيها ترتب شعرها، فلف ذراعيه



حولها ثم مرر يديه من كتفيها حتى عظمتي خصرها. فارتعشت:

ـ اوه... أرجوك... لا تفعل هذا جايسون... قد يصلون في أية لحظة.

ـ لا أظنك كنت تعتقدين أن بإمكانك الإحساس بمثل هذا. أليس كذلك؟

فردت مقطوعة النفس:

ـ لا... لم أكن لأتصوره هكذا... اوه!

ثم تركها... واتجه إلى الجهة الأخرى من الغرفة، حتى إذا ما دخلت بيتي وزوجها كانا بعيدين عدة أمتار عن بعضهم. ولكن احمرار وجه دونيس كان يعطي الدليل القاطع على ما كانا يفعلان.

مضى على خطوبتهما بضعة أيام عندما خطر ببالها أن تصرفات جايسون التي كان مليئة بالحب في الأسبوعين اللذين مرا، بدأت تشهد تغييراً ملحوظاً، فمنذ ليلة الخطوبة لم يقل أو يفعل أي شيء يجعل قلبها يخفق. بل أنه توقف عن محاولة لمسها كلما اختلى بها. بل إنه الآن وبعد خطوبتهما الرسمية أصبح محترساً وكأن هناك وصيفة ما تراقبهما طوال الوقت. أما سبب فعله فلم تفهمه.

في إحدى الليالي وهما عائدان من المسرح، قالت له:

ـ أتدري أنه مر علينا خمسة أيام لم تقبلني فيها إلا على وجنتي؟

فنظر إليها بسرعة وسألها ساخراً:

ـ وأين تريدين أن أقبلك؟

ـ لا تمازحني يا جايسون... نظراً لما كنت... تضغط عليّ حتى وقت متأخر، فهذا تغيير ملحوظ... هذا كل شيء. فهل أعدت التفكير في الأمر؟

ـ بل بدأت أفكر في أن الشهر الذي يفصلنا عن موعد الزواج طويلاً.

ـ قبل الخطوبة كنت تغازلني، بطريقة أو بأخرى... ومذاك الحين لم تمسك يدي حتى.

ـ لقد اعتقدت أنك ستفهمين الدوافع... ولكنني نسيت براءتك.

ـ وماذا تعني؟

ـ بالنسبة لك، المغازلة تعني، إمساك اليدين، التقبيل، الملامسة في حدود معينة. أما بالنسبة لي فلا حدود، لقد فكرت في ما يعني كل هذا. ولكنني لم أفعل لأنني رأيتك تفضلين الانتظار حتى ليلة الزواج. فهل أنا مخطىء؟

ـ كلا... أنت على حق... عليك الانتظار.

ـ براءتك في عالم فاسد جزء من سحرك بالنسبة لي... ولكن لا تظني أنني صبور كثيراً... فقد أفقد نواياي الطيبة قريباً.

أوقف السيارة أمام باب منزل كلارك. وبدلاً من أن ينزل ليفتح لها الباب التفت وقال لها:

ـ ما رأيك بقبلة... لا على وجنتك.

كان بينهما عناق مشابه لما كان يحصل قبل الخطوبة ولكنه سرعان ما انفصل عنها وهو يقول بصوت أجش:



ـ هل فهمت ما أعني؟ هيا اخرجي من هنا... سأراك غداً.

مد يده ففتح لها الباب، ثم دفعها بلطف...

نزلت دونيس مترنحة من تأثير العناق، ودخلت ببطء إلى المنزل... لقد جعلها تشاركه الشعور بأن الشهر طويل جداً.

في الأيام التالية ما عادت حائرة من ابتعاد جايسون عنها لأنها باتت تعلم أنه بذلك يضبط أعصابه ويسيطر على نفسه. ولكن ما أخذ يزعجها أكثر فأكثر بمرور الأيام واقتراب موعد زفافهما، إحساسها بأنه وإن نجح في جعلها تتجاوب مع نفاذ صبره لتنفيذ علاقتهما فعلياً، فهي لم تنجح في جعله يتلفظ بكلمة حب واحدة لها.

تذكرت أنه كان قد قال لكلير إن السبب الرئيسي الذي يدفعه للزواج من وصيته، هو شجاعتها، وانه يتمنى أن يرث أولادهما تلك الشجاعة. ولو أنها تمتلك الشجاعة فهذا هو وقت اظهارها عبر تصرف جريء. كانت كلما ازدادت تفكيراً في علاقتهما، كلما ازدادت قناعتها بأنها لن تستطيع الاستمرار للوصول إلى الزواج على أسسه الحالية، مع أن جايسون، وجايسون وحده، هو الذي تريده لتختبر الحب معه.

كان من حسن حظها أنه يكره الدعاية لذا قرر إقامة حفل زواج في ضاحية قريبة، لن يحضره سوى بيتي وريمون كلارك شهوداً، يتبعه بعد ذلك غداء غير رسمي قبل أن يطيرا إلى سواحل إيطاليا ليستقلا اليخت «كابريس» الذي جاء به القبطان من جزر البهاما عبر المحيط ثم المتوسط حيث يرسو الآن منتظراً في جنوى، ليقضي سيده فيه شهر عسله في جزيرة صغيرة.

تدعى «ايزولادي مارتا»... حتى مارغريت لن تحضر الزفاف، لأنها لا تعرف شيئاً عن أمر الخطوبة، وكل ما تعرفه أن دونيس ستتأخر في باريس لتجرب الإقامة هناك. ولتختبر قدرتها على العيش فيها.

ومن هنا كان الزواج غير مكبّل بالتعقيدات الاجتماعية أو الاهتمام بمكان إقامة الحفل وما يتبعه من عمل دؤوب.

قبل ثلاثة ليال من موعد الزفاف، وبعد أن تعشيا في مطعم هادىء، ردّها جايسون إلى بيتها حيث ودعها في الفناء لأن عائلة كلارك لم تكن في المنزل، وهو لم يكن يدخل معها ليلاً إلى البيت إلا إذا كانا هناك.

عندما صعدت إلى غرفتها، تركت رسالة لبيتي على طاولة الزينة، تقول فيها «لا تقلقي أنا مع جايسون»... ثم أخرجت بعدها حقيبة كانت وضبتها من قبل... ونزلت حذرة حتى لا يراها أحد الخدم وتركت المنزل، لتسير مسافة قصيرة قبل أن تجد سيارة تاكسي الى محطة قطارات الشمال.

مرت أربعون دقيقة بين وصولها إلى المحطة وتركها حقيبتها مع موظف الأمانات واستقلالها سيارة أجرة أخرى اتجهت بها إلى شقة جايسون. وهي ترتجف متوترة.

واستقبلها بواب البناية عند المدخل:

ـ نعم مدموزيل؟

فتمتمت باسم جايسون ذاكرة رقم شقته... بدا البواب دهشاً وهو يفتح لها باب أحد المصاعد. ضاغطاً على الزر المطلوب وفي عينيه نظرة توحي بأنه يعلم أنها لن تمكث وقتاً



قصيراً عنده.

لم تستغرق المدة الفاصلة بين ضغطها على الجرس وفتح الباب لها أكثر من دقيقة، ولكنها بدت لها ما تزيد عن الخمس دقائق. كان جايسون يرتدي الروب الأسود الحريري الذي كان يلبسه في تلك الليلة التي دخل فيها إلى غرفتها في الشاليه يوم الميلاد. وعندما شاهدها، رفع حاجبيه قائلاً:

ـ ما الذي دفعك إلي.

ـ هل لي أن أدخل؟

ـ طبعاً...

فدخلت غرفة الجلوس ووضعت حقيبة يدها على أقرب كرسي. ثم سألته:

ـ هل كنت نائماً؟

ـ لا... كنت أتحدث هاتفياً قبل دقائق من وصولك... هل حدث شيء خاطىء يا دونيس؟

ـ لا شيء... حقاً... عندما غادرنا المدينة الليلة، مررنا بحادث اصطدام، أتذكر؟ وبعد أن أوصلتني... أخذت أفكر كم ستكون سخرية الأقدار قاسية لو أنك تعرضت لحادث أثناء عودتك. أو أصبت أنا بحادثة في الغد... بدا لي أن القدر قد يضع حداً لسعادتنا خلال اليومين القادمين، في وقت نستطيع فيه أن نكون معاً... الآن... وهذه الليلة، هل تدعني أبقى معك يا جايسون؟

بينما كانت تتحدث تسللت ذراعاها إلى عنقه تطوقانه وتشدانه إليها. فوضع يديه على خصرها، ثم راحت عيناه

تخترقان أغوار نفسها وكأنه يبحث عن مآربها من ذلك، فارتعبت خوفاً من أن يكشف ما هو مكتوب في رأسها.

بعد قليل ضمها بين ذراعيه ثم حملها إلى غرفة أخرى، كانت الستائر منسدلة تسمح لنور القمر بالتسلل. دفع الباب وراءه ليقفله، ثم تابع حملها إلى سرير أزاح الأغطية عنه، لأنها شاهدت لون الشراشف والوسادات بيضاء شاحبة في ضوء القمر.

بعد ذلك جلس قربها ثم جذبها إليه يضمها بشغف، يشبعها عناقاً دون أن تمتد يداه إلى ثيابها، وكأنه يريد أن يضع حداً بينهما رغم العاطفة التي أججها وجودها المثير بين ذراعيه.

تسللت يداها إلى روبه تريد أن تنزعه عنه، لكنه أوقف يدها وقال لها بصوت أججته العاطفة:

ـ ليس الآن... لم يحن الوقت بعد... نامي الآن في هذه الغرفة وغداً نتحدث.

أحست فجأة بالحاجة إلى البكاء وبالخيبة تكتسح ذاتها، إذ كانت تتوق إلى أن تهبه نفسها دون خجل، لكنه رفضها وأبعدها عنه، دون أن يذكر كلمة حب واحدة بل هجر وإعراض. لو كان يحبها لما استطاع مقاومة انفعالاته أو نفسه عنها. إنها بنظره ليست أكثر قيمة من اولئك النساء اللواتي عرفهن.

بعد ساعات استفاقت فوجدت نفسها مسترخية. لكنها مذاك الحين هجر النوم عينيها، وبقيت مستلقية دون حراك، تحدق إلى الأشكال والظلال غير المألوفة في هذه الغرفة الغريبة عنها، تتساءل عما إذا كانت حمقاء لأنها تريد منه أكثر من اسمه



ومركزه ومن سحره وبراعته في الحب. إنها تريد الشيء الوحيد الذي يمنعه عنها... قلبه!

في ساعات الصباح الأولى، تسللت وهو لا يزال في الفراش، فارتدت ثيابها بسرعة ثم نظرت إلى وجهها في المرآة فشاهدت آثار الدموع... ولكنها لم تهتم البتة بما قد يقوله البواب عندما يشاهدها في الخامسة صباحاً، تطلب منه استدعاء سيارة أجرة لها.

كانت قد كتبت رسالة الوداع له في اليوم السابق، وهي تأمل، أن لا تضطر لاستخدامها فيما لو سمعت كلمة «أحبك» منه. ولكن هذا لم يحدث... فتركت له المغلف في موضع بارز من غرفة الجلوس، قربه، خاتم الخطوبة وسوار الأحجار الكريمة، وعقد اللؤلؤ.

ثم خرجت من شقته، ومن المبنى... ومن حياته.

● ● ●

## ٦ ـ حبها المجنون

كانت قد وجدت مسبقاً أن هناك قطاراً يغادر باريس في وقت مبكر إلى الساحل... لكنها لم تدرك مدى نجاحها في الهرب إلا بعد أن ابتعدت عبّارة القنال عن رصيف الشاطىء. خلال رحلة القطار كانت تخشى استيقاظ جايسون باكراً، فيعرف وجهة سفرها، ويركب سيارته مسرعاً كالمجنون ليمنع سفرها قبل أن تغادر فرنسا.

كانت تقف في صالون العبّارة، تمسك فنجان قهوة ساخن بين يديها، عندما أدركت مصدومة أنها لم تبتعد بعد عن متناول يده. فقد يلحقها ويصل إليها في دوفر.

وفي دوفر، استقلت القطار إلى لندن. ومن هناك استقلت أحد الباصات إلى فندق رخيص، توفيراً لما معها من أموال. كانت تنوي قضاء ليلة قبل السفر إلى بريستول أو نيوكاسل أو أي مدينة صناعية أو تجارية مزدحمة حيث تستطيع إيجاد عمل معيدة بعد ذلك التفكير في مستقبل حياتها.

بعد التسجيل، وإيصالها إلى غرفتها الصغيرة، أقفلت الباب على نفسها وانهارت على الفراش باكية.

كانت الليلة من اسوأ الليالي التي مرت بها في حياتها، بل



هي اسوأ من تلك الليلة التي أمضتها ضائعة في الجزيرة، خائفة، جائعة وعطشى... ولكن كان لا يزال لديها أمل بالانقاذ... ربما حياتها الآن ليست في خطر، إنما أصبحت دون أمل بعودة السعادة. وما نفع الحياة دون سعادة؟

لقد تلاشت آمالها وأضحت وحيدة في فراش ضيق لا يؤاسيها أو يسكت الشوق إلى جايسون أحد. كانت تحس أنها كمن لا يعرف القراءة، وعندما تعلمها، وجد نفسه سجين في مكان ليس فيه كتاب واحد.

في اليوم الذي كان مقرراً لزفافها، كانت تخطط للسفر إلى بروكسل عن طريق البحر ثانية علها تجد أحداً من عائلتها في بلجيكا... فكرة عودتها إلى الريف حيث جذور عائلة أمها وانتهاء عشية ليلتها الثانية في لندن. ولكن عندما فكرت في بلجيكا، أحست بارتفاع في معنوياتها، وفي اليوم التالي أجبرت نفسها على تناول طعام دسم حتى تكون مستعدة في اليوم التالي للسفر.

في الصباح التالي قصدت المحطة التي ستقلها إلى الساحل. وما أن دخلت حتى وقع نظرها على صحيفة كتب في صفحتها الأولى بخط عريض «مكافأة كبرى لعروس هاربة».

اشترت الصحيفة التي بان في الصفحة الأولى منها صورة لها ولجايسون تذكرت أن أحد ابناء كلارك قد التقطها لها بكاميرا كانت هدية له في عيد الميلاد. تابعت الصحيفة تقول بالخط العريض: «مليونير يعرض خمسة وعشرين ألف جنيه استرليني مكافأة لأية معلومات عن عروسه الهاربة».

ولكن دونيس لم تكمل القراءة. بل وضعت الصحيفة من يدها بتنهيدة مخنوقة. جلست إلى المقعد تفكر فيما يمكن لها أن تفعل.

خمس وعشرون ألف جنيه مبلغ ضخم يدفع أي إنسان يقرأ المقال إلى أن يبحث عنها. فهي وإن سارعت إلى تغيير لون شعرها وبعض من مظهرها فلسوف تعرف... ولكي تبدأ حياة جديدة عليها أن تغير اسمها... ولكن كيف لها أن تشرح سبب استخدامها اسماً مستعاراً.

الاختفاء ممكن لمجرم، لديه القدرة على التوصل إلى أوراق مزورة... ولكن ليس لها، ليس لشخص شريف. إذن لقد حبس جايسون عنها أنفاسها وباتت ودون منفس أو مهرب من الشبكة التي رماها بثرائه عليها. كيف لها أن تغادر بريطانيا الآن وتمر عبر دائرة الجوازات؟

عندما غادر القطار المحطة، لم تكن على متنه، بل في سيارة أجرة أقلتها إلى شقته التي كانت تسكنها.

صاحت السيدة واتسن عندما شاهدتها:

ـ آنسة ايفانز! اوه... شكراً لله! لقد قلقنا جداً عليك! أين كنت؟ وماذا أصابك؟... يا عزيزتي، أنت لا تبدين بخير أبداً... هل أصابتك نوبة فقر دم؟

ردت دونيس متوترة:

ـ ليس بالضبط.

تقدمت مدبرة المنزل تأخذ الحقيبة منها قائلة:

ـ ليس هذا أمراً غريباً بعد ما مررت به يوم غرق مركبك في



تلك الجزيرة في البهاما. السيدة مارشال، المضيفة في يخت السيد جايسون، صديقة لي، وقد أخبرتني عن الحادثة يوم عادت لتشرف على علاج زوجها المريض في المستشفى. كان السيد جايسون لطيفاً جداً معهما. لطيف مع موظفيه ومع الناس. سأضع لك الآن فنجان شاي، ولكن سأتصل به أولاً لأريحه من قلقه.

ـ و... أين هو؟

ـ لقد وصل لندن بالأمس... اعذريني، لن أتأخر خمس دقائق.

تركت دونيس في غرفة الجلوس، وأسرعت إلى جناحها لتستخدم الهاتف.

عندما عادت، قالت:

ـ سيكون هنا بعد ربع ساعة. أتفضلين الشاي أم القهوة؟

ـ لا شيء شكراً لك سيدة واتسن. فقد تناولت الفطور منذ ساعة. ماذا قال السيد كونر عندما أخبرته عن وجودي؟

ـ أظهر الارتياح. المسكين، لقد اشتغلت في منزله خمس سنوات لكني لم أره يوماً مضطرباً كما كان في صباح هذا اليوم وفي ليلة أمس.

ـ ولكن ماذا قال لك بالضبط؟

ابتسمت مدبرة المنزل:

ـ قال: «إن تركتها ترحل فسأطردك» ولكنه بالطبع كان يمزح. أتعلمين... صحيح أن الوقت مبكر، ولكنني أعتقد أن كوب حليب مع البيض والعسل سينعشك... فأنت تبدين تعبة

جداً يا عزيزتي.

لم تكن دونيس قد أنهت شرب كوبها عندما سمعت أصواتاً في الردهة. صوت جايسون نافذ الصبر، وصوت السيدة واتسن مهدئاً له.

وضعت الكوب من يدها المرتجفة... خائفة من المواجهة القادمة.

عندما دخل، لاحظت فوراً غضبه الشديد، وكان أول ما قاله:

ـ إذن... لقد قررت العودة! ما الذي غيّر رأيك؟

عندما حاولت الرد وجدت لسانها معقوداً من التوتر... فبذلت جهداً كبيراً حتى استطاعت أن تتمتم:

ـ لم... استطع تركك، تهدر كل ذلك المال... مع أنني أظن أن... من... غير الإنصاف... أن تستخدم مالك ضدي.

ـ ولكنك تجدين أن من الإنصاف أن تغويني ثم تهربين مني؟

ـ كلامك مضحك ومناف للعقل! كيف يمكن لفتاة أن تغوي رجلاً؟

ـ لست أدري ما قد تسمين ما أردت فعله...

فاحمر وجهها:

ـ ما أردت فعله هو ما تفعله أنت دائماً. فلياليك لا تخلو من امرأة... فيرونيك توماس... كلير... وتلك الفتاة التي ردت عليّ في شقتك في لندن.



ـ أية فتاة؟

ـ وكيف أعرف من تكون؟ اتصلت بك يومها في الصباح أطلب منك إذناً بالسفر إلى منزل مارغريت مايلز فكانت هي من أجابت. ها أنت الآن لا تتذكر حتى اسمها... لذلك من السخف أن تتهمني باغوائك فما كنت أقصد إلا أن أهديك نفسي، ومع ذلك رفضتها.

ـ ألم يخطر ببالك ما يمكن أن ينتج عن هربك؟ أتحاولين إعادة الماضي... أتخاطرين بالعودة إلى التشرد؟

ـ أنا... لم أعتقد أنني سأعود إلى التشرد.

ـ ربما أنت مستعدة للمخاطرة، ولكنني غير مستعد.

ـ لا أتوقع منك أن تكون مستعداً... ولست على استعداد لأتزوجك. لا أستطيع... لا أستطيع!

ـ إذن... يبدو لي أن الطريقة الوحيدة، هي إجبارك على ذلك.

وقبل أن تدري ماذا يفعل، كان قد أوقفها وشدها بين ذراعيه ثم حملها من غرفة الجلوس عبر الممر وهي تقاومه:

ـ اوه... ارجوك... لا أستطيع! انزلني!

كانت حتى تلك اللحظة غير واثقة من أنه سيستمر في تنفيذ تهديده. ولكن عندما وقف أمام الباب وأمرها بفتحه، بدأت تتساءل عمّا إذا كان سينفذ تهديده، أم أنه يحاول إخافتها للانتقام منها... وصاح:

ـ افتحيه!

خافت من أن تحدث ضجة تصل إلى مسمع السيدة واتسن،



بلا عنوان

أطاعته. فتحت غرفة النوم، لكنها رغم ذلك لم تكن خائفة منه حتى عندما تقدم من السرير ليرميها فوقه.

عندما ارتد إلى الباب ليقفله بالمفتاح، كانت قد وقفت وابتعدت إلى الجانب الآخر من السرير.

تقدم منها ببطء، عابساً، غاضباً غضباً لا رحمة فيه، عندها وعندها فقط اجتاح الخوف قلبها.

وقال لها آمراً:

ـ اخلعي ملابسك.

حاولت ابقاء صوتها ثابتاً وهي ترد:

ـ لن أفعل.

ولكنها لم تستطع منع نفسها من التراجع بتوتر. فجأة بدا لها أن أفضل ما تفعله هو الإسراع إلى الحمام لإقفال بابه على نفسها إلى أن يبرد غضبه.

كادت أن تنجح... ولكن قبل متر من الباب، أمسكت بها يده، تشد معصمها بقوة، ثم تدفعها إلى ذراعيه... فأصبحت بذلك سجينة صدره. فصاحت، وقد تصاعد غضبها:

ـ اتركني! لا يمكنك أن تفعل بي هذا.

ـ أنت لا تعرفيني بعد... ما أريده أحصل عليه، وما أحصل عليه أتمسك به.

وللمرة الثانية حملها إلى الفراش. ووقف عند طرفه ينظر إليها وهو يخلع قميصه، كاشفاً بذلك عن كتفيه اللتين أصبحتا فجأة تثيران الرعب في قلبها.

شلها الذعر... وهي تراقبه ينزع عنه القميص، مبقياً نظره



على وجهها، ثم رفع قدميه ليخلع حذاءه وجوربه. بعدها أسند ركبته إلى الفراش، ومد يده إليها. فتراجعت عنه ملذعورة... وقالت متلعثمة:

ـ أنت... لن... تتمتع باغتصابي يا جايسون.

أطلق ضحكة قصيرة جافة:

ـ لن اغتصبك يا فتاتي... فالاغتصاب يكون عندما تكون المرأة رافضة. وأنا أعدك بأنك قبل أن تصلي إلى مرحلة الرفض ستكونين أكثر من راضية.

مع أنها تعلم أن لا فائدة، ولكن كبريائها دفعتها إلى مقاومته فتلوت فوق السرير...

ـ إذا لم تتوقفي عن المقاومة فسأمزق ثيابك.

ـ لا أبه! كيف تفعل بي هذا؟ ظننتك رجلاً لا حيواناً!

ـ في عالم الحيوان لا تقاوم الأنثى أبداً، فهي تعرف ما هو المطلوب منها، وتخضع له...

وتمزق كم فستانها وهي تلوي ذراعيها بعيداً عنه... فقال بسخط:

ـ هاك... كان هذا غلطك يا عزيزتي...

بعد ذاك امتدت راحتا يديه الساخنتين إلى كتفيها، تلبيهما بحرارتهما. فراحت تضرب بقبضتيها كتفيه وصدره... وهي تشعر بالكره لمشاعرها التي راحت تغزوها وتخونها.

لم تعلم من أين أتتها تلك القوة التي جعلتها ترفس معدته بقوة. فتلوى ألماً وارتدّ قليلاً. عندها استغلت الفرصة السانحة وركضت إلى الحمام فأوصدته من الخارج وهي تجهش بالبكاء.

أخذ يطرق الباب بقوة ثم صرخ بها مهدداً بأنه سيخلع الباب إن لم تفتحه. كانت الدموع تعميها عندما فتحته أخيراً خوفاً من أن ينفذ تهديده بخلعه.

نظر إليها بإمعان غاضباً، لكن لم يلبث أن تحوّل الغضب إلى رقة بعد أن رأى الذعر في عينيها والدموع على وجنتيها. دنا منها بهدوء وحملها بين ذراعيه ووضعها على السرير ثم انحنى إليها فقبل جبهتها ومضى...

نظرت إليه وهو يبتعد مذهولة ذهولاً مزجه الراحة والذعر. بقيت مدة وجيزة لا تعرف ماذا تفعل: أتبكي أم تضحك، لكن جهدها وتعبها جعلاها تستسلم إلى النوم.

في الصباح بعد دقائق من استيقاظها رأته يدخل مرتدياً كامل ثيابه، حاملاً صينية وضعها على الطاولة قرب السرير...

ـ لقد صنعت لك السيدة واتسن فطوراً خفيفاً...

ـ سأخرج لبعض الوقت... لكنني أريد قبل ذلك وعداً بعدم مغادرة هذه الغرفة قبل عودتي. وإذا رفضت سأضطر إلى إقفال الباب بالمفتاح.

ـ أعدك... إلى أين أنت ستذهب؟

فنظر إليها بسخرية:

ـ أريد أن أجعل منك امرأة شريفة في الصباح الباكر، كلي هذا الطعام، ثم عودي للنوم. أريدك بتمام العافية عندما أعود.

بعد خروجه، جلست، فصبت لنفسها فنجان شاي، ثم شرعت بتناول فطورها.

كانت قد عادت من جديد إلى السرير، بعد الحمام...



عندما سمعت طرقاً على الباب، فغطت كامل جسدها وقالت «ادخل».

ـ السيدة دوفال على الهاتف، آنسة ايفانز. تريد التحدث إلى السيد كونر. قلت لها أنه خرج... فهل تكلمينها؟ قلت لها انك نائمة ربما وانني قد أزعجتك.

ـ سأتحدث إليها... شكراً لك.

انتظرت دونيس حتى خرجت المرأة لتمد ذراعها إلى سماعة الهاتف.

ـ كلير؟ هذه أنا... دونيس.

ـ لقد سمعت لتوي من بيتي كلارك أنك خرجت من مخبأك. فلم استطع مقاومة اغراء الاتصال بك لأعرف ما إذا كنت بخير... فأنا ما زلت متعلقة بجايسون... وبك شيري.

ـ أنا بخير... شكراً لك كلير.

ـ لماذا جايسون ليس معك؟ ماذا حدث من جديد بينكما؟ لم أفهم سبب هربك منه أساساً. قد تقولين ان هذا ليس من شأني، صحيح، ولكنني لا استطيع منع فضولي عندما تهرب فتاة من زواج تحلم به معظم النساء.

ـ أتذكرين عيد ميلادي؟

ـ بالطبع.

ـ خلال السهرة خرجت وجايسون للنزهة في الحديقة، حينها قال لك إنه سيتزوجني... وكنت صدقة وسمعت حديثكما... وعندما سألته فيما بعد عما إذا كان يحبني، قال إنه لا يحبني. بل لديه أسباب أخرى للزواج مني... وما هربت

منه الا لأنني أحبه، فأنا غير قادرة على الزواج ممن لا يحبني.

ـ ألم يقل لك قطّ انه يحبك... هذا غريب.

ـ وأين الغرابة؟ وهو لا يتزوجني عن حب. بل يعتبر زواجنا كزواج يدبره الأهل.

ـ لكن هذا غير معقول! ولست أدري لماذا امتنع عن البوح بحبه بك. ولكن تأكدي من حبه لك. لقد قالت لي بيتي كلارك إنه أصبح مسعوراً من القلق. وهذا يظهر مدى يأسه الذي دفعه إلى أن يكشف قصته للصحافة. المكافأة لم تكن تعني له شيئاً... فحياته الخاصة أهم شيء لديه. إنه يكره الأضواء. والحب ليس كلمات بل أفعالاً، يا شيري، وإذا كان يعاملك بحب، فهل يهمك أن يبوح لك بما في قلبه؟

ـ هذا صحيح... إذا كان الشعور موجوداً. على كل سنتزوج... هو غير موجود لأنه يحضّر أمور زواجنا.

ـ إذن لن تعودا إلى باريس.

ـ هذا هو الظاهر.

ـ لا شك في هذا، فأنا وآل كلارك وحدنا من يعرف أنه موجود في لندن فهو يريد تجنب الاعلان. أستطيع تصور حالته عندما شاهدك. من المؤكد أنه تصرف بغضب بدل العاطفة، ولن أدهش إن قلت إنه ضربك بقسوة عقاباً لما مرّ به.

ـ لا... لم يفعل، ولكنه كان غاضباً.

ـ أنا واثقة من هذا، إنه بذلك يُظهر شدة اهتمامه بك... فلو اختفيت أنا أو إحدى النساء الأخريات، لما عبأ بنا إطلاقاً... ولكن أنت... إنه جاد... وأنا واثقة.



تابعتا الحديث بضع دقائق أخرى ثم انتهت المكالمة.

بإمكان الزوجة دائماً أن تجبر الزوج على البوح بحبه، إذا كانت مصممة... فهل هذا صحيح؟

قد ينطبق هذا على رجل عادي، زوجته تؤمن له كل شيء: العناية والتدبير المنزلي والطهي، أما جايسون فلديه فريق عمل يوفر له أفضل ما يريد... إذن لم يبق سوى الأولاد، والصحبة، مما يطلبه من زوجة.

عندما عاد وجدها فوق مقعد قرب النافذة، ترتدي روباً مشجراً شرقياً كان قد اشتراه دون شك من اليابان. قالت له:

ـ لقد خرجت السيدة واتسون... وبما أنني وعدت أن لا أغادر هذه الغرفة فقد ارتديت هذا، لأن ثيابي في غرفة أخرى.

ابتسمت، قانعة الآن بما قررت... لقد اكتفت من كل تفكير سخيف بخاطرها... وهي ستكون له الآن وأبداً قلباً، جسداً، وفكراً... ولكنها لن تطمع منه بأكثر مما هو مستعد ليهبها إياه، فالأيام القليلة التي مضت جعلتها تدرك صحة القول المأثور: نصف رغيف خير من لا شيء.

سمعته يقول لها:

ـ كل شيء جاهز. سنتزوج عند العاشرة من صباح الغد. ثم سنطير إلى جنوى، كما كان يجب أن نفعل قبل الآن. ولكن الشيء الوحيد الذي لم أؤمنه هو الشهود. هل تحبين الطلب من صديقتك مارغريت مايلز أن تكون شاهدتك؟

ـ أجل...

ـ الأفضل إذن أن تتصلي بها الآن... على أن تدعيها

للعشاء هذا إن لم يكن لديها ارتباط آخر.

هبت سائرة ليس باتجاه الهاتف بل باتجاهه:

ـ جايسون... هل سامحتني لما سببته لك من قلق، ولاضطرارك للحديث مع الصحافة بسببي؟

لم يظهر أي أثر للغضب الآن في وجهه، بل ابتسامة صغيرة محيرة:

ـ سوف تختبرين بنفسك سبب كرهي للصحافة وذلك عندما ستواجهين آلات التصوير المنتظرة في ردهة المبنى. عندها ستفهمين سبب ابتعادي عنهم.

ـ وكيف عرفوا أنني عدت إليك؟

ـ كان الأفضل لي أن أعلن الخبر لأوفر على موظفي مكاتبي في باريس وتندن عناء الرد على مكالمات الناس الذين يدعون أنهم شاهدوك... وأخشى الآن أن زواجنا السري الصغير سيتم علناً وسط دعاية كاملة.

بعد ثمان وأربعين ساعة وجدت دونيس نفسها على متن اليخت الأبيض الأنيق. الذي بدأت فيه علاقتها مع من أصبح زوجها. كان اليخت يرسو في أحد أجمل خلجان الشاطىء الإيطالي قرب قرية هادئة تدعى «توليرتيو» فيها ميناء صيد جميل يسمح برسو اليخوت...

كانت تستلقي في الشمس على السطح الجانبي وقبعة قش واسعة تغطي عينيها، ونسخة من صحيفة معروفة بين يديها.

كانت صحيفة مختصة بالإثارة لا يحبها جايسون، اشتراها بحار كان قد توجه إلى القرية لشراء السمك الطازج... وقد



أعطاها للسيدة مارشال لتعطيها للعروس ظناً منه أنها ستحب رؤية صورتها مع زوجها أثناء خروجهما من مكتب عقود الزواج حيث أصبح اسمها السيدة دونيس كونر.

بينما كانت تتأمل الصورة التي غطت نصف الصفحة الأولى... فكرت في أنهما كانا يبدوان زوجين سعيدين، رغم الصعوبات التي سبقت زواجهما. كانت في الصورة تبتسم لجايسون، الذي كان يبتسم لها. بطريقة اقنعت كل من قرأ الجريدة بأنه زواج قائم على الحب. وتحت الصورة جملة لفتت انتباهها:

«صديقة العريس السابقة تكشف حب رجل الأعمال الشهير لعروسه من النظرة الأولى، بعد إنقاذه لحياتها... التفاصيل في الداخل».

فتحت الصفحة الداخلية بسرعة فوجدت صورة فيرونيك توماس.

ما كادت تنهي قراءة المقال إلى جانب الصورة حتى أحست بيد على كتفها جعلتها تجفل بحدة:

ـ اوه... لم أسمعك وأنت قادم.

تطلعت إلى جايسون الذي أمضى الساعة الأخيرة مشغولاً في مكتبه وسألها وهو يجلس بقربها، مشيراً إلى الجريدة:

ـ من أين حصلت على هذه؟

ـ ظنت السيدة مارشال أنني قد أحب رؤية صورتنا في الصفحة الأولى... هل نستطيع الحصول على نسخة منها؟

ـ أظن هذا، إذا رغبت... دعيني أراها!

أعطته الصحيفة، آملة أن لا يلاحظ القصة التي كانت تقرأها. ولكن عيناه الحادتان لا تفوتهما شيء، إذ قلب الصحيفة إلى الوسط وبدأ يقرأ ما كشفته فيرونيك عن قصتهما، توقعت، في أي لحظة، أن يقطب حاجبيه غضباً، لما يقرأه عن كيفية دخول دونيس إلى حياته... ولكنه لم يغضب... بل علق بخشونة وهو يطوي الصحيفة ويرميها:

ـ اتساءل كم دفعوا لها ثمن هذه القصة؟

ـ لقد وصفتني وكأنني إحدى الأميرات في قصة خرافية، أطفو فوق السماء بكل جمال... بدلاً من الحطام الذي كنت عليه... لا أعتقد أن أحداً قادر على حب ذاك الحطام من النظرة الأولى... كما ادّعت.

ـ لا... لم تكوني بأفضل حال عندما رأيتك أول مرة... ولكنني أظن أن الحب قد يشعر بالعاطفة العميقة تجاه صديق أو زوجة، بين ليلة وضحاها... وأعتقد أنني أحسست بتأثيرك فيّ، أكثر من أية امرأة، ليلة كنت في غرفتك في الشاليه.

ـ تأثيري؟

فتحرك من كرسيه إلى كرسيها ليمسك بيديها.

ـ هذا التأثير يدعى «الحب» ولكن هذا إحساس لم أشعر مطلقاً به قبل أن أعرفك... ولم أدرك أنني «أحب» إلا حين اختفيت.

فسألته بصوت متحشرج:

ـ وهل تحبني؟... لم تبح لي بذلك قط.

ـ أعرف هذا... لكنني لم أعتد بعد هذا الشعور الذي



يعتمل في داخلي. ولم أستطع الاعتراف بأنني غير قادر على العيش بدونك.

لمعت عيناها بدموع الفرح وقالت متلعثمة:

ـ اوه... جايسون!

احتواها بين ذراعيه يشدها إلى جسده:

ـ ردة فعلك هذ تشبه ردة فعلك يوم تلقيت هدية الميلاد من مارغريت فأنت لم تحصلي على هدية كتلك من قبل. جورب مليء بالحلوى. يومها أحسست فجأة بأنني أرغب في اعطائك كل ما لم تحصلي عليه في حياتك... على أن تعطيني أنت ما لم أحصل عليه من أية امرأة من قبل... هدية تضطرين معها للتضحية بشيء له قيمة كبرى لك. وكان عليّ يومها أن أعرف، أنك لا تنظرين إلي كمطية لرغباتك.

ـ وهل استغلك أحد كمطية لرغباته من قبل؟ وهل هذا هو سبب تحدثك عن الحب بطريقة مشمئزة.

ـ لا... ولكنني كنت أعلم دائماً أن كل النساء اللواتي عرفتهن، ما عدا كلير، لم يكن يهتممن بي إلا لمالي.

ـ وهل كان من الممكن أن تحب كلير لو أنها لم تكن مخلصة لعملها؟

ـ لا... ما كان بإمكاني أن أحب أحداً غيرك... ففيك كل ما أريده في امرأة... الذكاء، اللطف، المرح، الحب، والجمال جمال النفس الذي لا يقارن بأي جمال... الله يعلم لماذا لم أعِ إلا متأخراً وقوعي في حبك بجنون كشاب مراهق.

ـ إن، من الصعب أن يشعر المرء بأن حياته كلها مرهونة



بلا عنوان

بشخص آخر. أعرف هذا. فقد قاومت حبك كثيراً.

سمعا شيئاً يزعج هدوء اليوم المشمس. فنظر جايسون إلى السماء الزرقاء الصافية... قائلاً:

ـ كنت أعرف أنه لن يطول الوقت قبل أن يصل الخبر بأن «كابريس» ترسو في مياه بحر الليغوريه الإيطالي... وأن الصحافة ستسرع للبحث عنا. ولا بد أن طائرة الهليكوبتر تلك التي تتقدم نحونا، يستأجرها مصور... فهل لنا أن نكون لطيفين معه؟

عندما دنت الهليكوبتر للدوران فوق اليخت وقفا على السطح يبتسمان ويلوحان للمصور وهو يركز آلاته عليهما من مقعده قرب الطيار.

ثم التفت ذراع جايسون حول خصر دونيس... وقال لها:

ـ فلننزل الآن إلى المقصورة في الأسفل.

نظرت إلى عينيه، فشاهدت أخيراً حبها المجنون له ينعكس في عيني زوجها الرماديتين.

• • •

بلا عنوان
www.liilas.com